الفصل الثانى

نظرية سوسير فى اللغة

لم يكن سوسير سعيداً بعلم اللغة عندما عرفه، لأنه اعتقد أن أسلافه قد أخفقوا فى التفكير جدياً أو على نحو سليم فيما كانوا يصنعون. وقد كتب يقول(١) إن علم اللغة «لم يحاول قط أن يحدد طبيعة الموضوع الذى كان يدرسه؛ وإن العلم لا يستطيع بدون هذه العملية الأولية أن يطور منهجاً ملائماً (الدروس ٣، دروس ١٦)(*).

وضرورة هذه العملية ماسة؛ لأن اللغة البشرية تمثل ظاهرة بالغة التعقيد والتنوع، بل إن أى فعل كلامى مفرد يتضمن قدراً غير عادى من العناصر، ومن ثم يمكن تأمله من وجهات نظر مختلفة بل متعارضة. إن فى وسع المرء أن يدرس الطريقة التى ينتج بها الفم والحبال الصوتية واللسان الأصوات؛ وفى وسعه كذلك أن يبحث فى الموجات الصوتية التى تنطلق، وفى الطريقة التى تؤثر بها فى آلية السمع؛ كما أن فى وسعه أن ينظر فى مقصد المتكلم الدال، وفى الجوانب التى تشير إليها عبارته من العالم، وفى الظروف المباشرة لسياق التواصل التى ربما تكون قد قادته إلى إنتاج سلسلة بعينها من الأصوات. وربما حاول المرء تحليل الأعراف التى تمكّن المتكلم والمستمعين من أن يفهم بعضهم

---

(١) إننى استخدم عبارات مثل «كَتَب سوسير» تيسيراً للامور فحسب، وإلا فإن أجزاء من الدروس قليلة للغاية، على نحو ما ذكرت فى الفصل الأول، هى التى كتبها سوسير حقًّا.

(*) على مدار الكتاب ستكون الإشارة إلى عمل سوسير مزدوجة على هذا النحو، وفيها يقصد بكلمة الدروس Course ترجمة ويد باسكن Wade Baskin للدروس، التى صدرت طبعة منها فى نيويورك ١٩٧٦ بعد طبعة لندن ١٩٧٤، ويقصد بكلمة دروس Cours طبعة تيلو دى ماورو Tullio de Mauro الفرنسية النموذجية فى باريس ١٩٧٣، وأرقام الصفحات فى هذه الطبعة تفيد فى الرجوع إلى النصوص فى ترجمة روى هاريس Roy Harris الإنجليزية الصادرة فى لندن ١٩٨٣. وقد اكتفى المؤلف بالكلمة الأولى من العنوان فى الإشارة إلى هاتين الترجمتين اعتماداً على اختلاف حروف الهجاء بين الكلمتين الإنجليزية والفرنسية، والتماساً لفارق بينهما فى هذه الترجمة جعلنا الأولى معرفة والثانية منكرة، (المترجم).

بعضاً، مستنبطاً القواعد النحوية والدلالية التى لابد أن يكونوا قد تمثلوها إذا كانوا قد تفاهموا بهذه الطريقة. ومرة أخرى ربما كان فى وسع المرء أن يتتبع تاريخ اللغة الذى أتاح ظهور هذه الأشكال المعينة فى هذا الوقت.

وهكذا يتعين على عالم اللغة، وقد واجهته هذه الظواهر جميعاً، وهذه المنظورات المختلفة التى يتناول المرء هذه الظواهر على أساسها - يتعين عليه أن يتساءل عن الشىء الذى يحاول وصفه: إلى أى شىء على وجه الخصوص ينظر المرء، أو عن أى شىء يبحث؟ وفى إيجاز، ما اللغة؟

إن إجابة **سوسير** عن هذا السؤال لا غبار عليها، ولكنها بالغة الأهمية، حيث إنها صالحة للفت الانتباه إلى المسائل الجوهرية. فاللغة نظام من العلامات؛ ولا تعد الأصوات لغة إلا عندما تعبر عن الأفكار أو تنقلها، وإلا فهى مجرد أصوات. ولكى تعبر الأصوات عن الأفكار أو تنقلها ينبغى لها أن تكون جزءاً من نظام من الأعراف يربط بين الأصوات والأفكار. وبعبارة أخرى، ينبغى لها أن تكون جزءاً من نظام من العلامات. والعلامة هى اتحاد بين شكل يدل، يسميه سوسير الدال Signìfiant، وفكرة يُدَل عليها، تسمى المدلول Signifie. ومع أننا قد نتكلم عن الدال والمدلول، كما لو كانا عنصرين منفصلين، فإنهما لا يوجدان إلا بوصفهما مكونين للعلامة؛ فالعلامة هى الحقيقة الجوهرية للغة، ومن ثم فإننا حين نحاول الفصل بين ما هو جوهرى وما هو ثانوى أو عرضى، ينبغى لنا أن نبدأ بطبيعة العلامة ذاتها، وبخصائصها الأولية.

الطبيعة الاعتباطية للعلامة:

يتعلق المبدأ الأول فى نظرية اللغة عند **سوسير** بالخاصية الجوهرية للعلامة؛ فالعلامة اللغوية عنده اعتباطية، ذلك بأن أى اتحاد بعينه بين الدال والمدلول إنما يمثل وحدة اعتباطية، وفهم هذا المبدأ المبهم على وجهه الصحيح يعد أساساً لمفهوم اللغة والمنهج اللغوى عنده.

لا أحد ينازع فى المبدأ القائل بالطبيعة الاعتباطية للعلامة، ولكن أن تَستكشف حقيقة ما غالباً ما يكون أيسر من أن تعين لها مكانها الصحيح. والمبدأ المذكور آنفاً يسيطر على التحليل اللغوى إجمالاً؛ والنتائج المترتبة عليه لا حصر لها، وإن كان من الصحيح أنها لا تتساوى على الفور فى الوضوح؛ ثم إن المرء لا يستكشفها إلا بعد المرور بمنعرجات كثيرة، ومعها يستكشف الأهمية الجوهرية لهذا المبدأ. (الدروس ٦٨؛ دروس ١٠٠).

ماذا يعنى سوسير بالطبيعة الاعتباطية للغة؟ والإجابة عن هذا سهلة نوعاً ما، إذ ليس هناك رابطة طبيعية أو إلزامية بين الدال والمدلول. وما دمت أنا أتكلم الإنجليزية فإننى قد استخدم الدال الذى تمثله كلمة ***dog*** (كلب) للكلام عن حيوان من نوع بعينه، ولكن هذا النسق من الأصوات لا يلائم هذا الغرض على نحو أفضل من نسق آخر، فمن الممكن أن تؤدى هذا الغرض بالدرجة نفسها كلمات مثل ***Lod*** أو ***tet*** أو ***bloop*** إذا ما تقبلها أفراد مجتمع الكلام الذى أنتمى إليه. وليس هناك سبب جوهرى يفسر لنا لماذا كان أحد هذه الدوال أحرى من غيره أن يرتبط بالصورة الذهنية للكلب (لاحظ اننى استخدم هنا، وعلى مدى صفحات الكتاب، الكتابة بالحروف المائلة لكى أدل بها على الصيغ اللغوية (مثل ***dog*** و ***Lod***)، واستخدم علامات التنصيص لأدل على المعانى [مثل "dog"].

أليس لهذا القانون الأساسى استثناءات؟ من المؤكد أن هناك طريقتين يمكن بهما تبرير استخدام العلامات اللغوية، بمعنى أن تصبح أقل اعتباطية. فهناك أولاً حالات المحاكاة الصوتية onomatopoeia، حيث يبدو صوت الدال محاكياً على نحو ما أو مقلداً، كما هو الشأن فى الإنجليزية فى الصوت ***bow - wow*** أو ***arf - arf*** (قارن بهذا فى الفرنسية ***ouâ - ouâ***، وفى الألمانية ***wau - wau***، وفى الإيطالية ***bau - bau***)(*)، ولكن هذه الحالات قليلة. وكوننا نرى فيها نمطاً مستقلاً وحالة خاصة، ليس سوى تأكيد

(*) وقارن ايضاً فى العربية هَدهد، وثرثر.. إلخ، (المترجم).

أقوى لحقيقة أن العلامات العادية اعتباطية.

ومع ذلك فإن العلامات فى إطار لغة بعينها يمكن تبرير استخدامها على نحو خاص بطريقة مختلفة. فالآلة التى أكتب عليها تسمى **الآلة الكاتبة typewriter**، وليس هناك سبب جوهرى يفسر لنا لماذا لا ينبغى تسميتها grue أو blimmel(*)، ولكن أمكن تبرير كلمة typewriter فى إطار اللغة الإنجليزية لأن المعنيين الخاصين بالنسقين الصوتيين اللذين يكونان الدال فيها، وهما **type** و**writer** يرتبطان بمدلولها، أى بفكرة الـ «آلة الكاتبة» (typewriter). وفى وسعنا أن نسمى ذلك «تبريراً ثانوياً». ولنلاحظ – على سبيل المثال – أن العلاقة بين هذا النسق الصوتى والتصور الذهنى لم تنشأ إلا فى اللغة الإنجليزية؛ فإذا تعين على الفرنسيين استخدام الصيغة نفسها للكلام عن هذه الآلة، كانت عندئذ علامة اعتباطية على الإطلاق، مادام العنصر المكون الأولى، وهو كلمة writer، ليس علامة فى اللغة الفرنسية، أضف إلى هذا أن عملية الربط عند **سوسير**، على نحو ما سنرى بين type وwriter لخلق علامة جديدة، تماثل – على نحو جوهرى – الطريقة التى نربط بها بين الكلمات لكى نشكل عبارة (يكون معناها مرتبطاً بمعانى الألفاظ المفردة مجتمعة)، ومن ثم نستطيع أن نقول إن اللغات تتخذ من العلامات الاعتباطية عناصر أساسية. ثم إنها بعد ذلك تقوم بعمليات مختلفة للجمع بين هذه العلامات، ولكن هذا لا يغير من الطبيعة الجوهرية للغة ولمكوناتها الأولية.

والعلامة اعتباطية بمعنى أنه ليس هناك حلقة اتصال جوهرية بين ا لدال والمدلول. وعلى هذا النحو كان من المعتاد تفسير مبدأ **سوسير**، ولكنه فى هذا الإطار يمثل فكرة تقليدية صرفاً أو حقيقة واضحة بعض الشىء عن اللغة. ولما كان تفسيره قد تم بهذه الطريقة المحدودة، فإنه لم تكن له تلك النتائج الخطيرة الشأن، التى ادعاها له **سوسير** مراراً وتكراراً، وفقاً لما هو ثابت فى مذكرات الطلبة: «إن المكان التراتبى لهذه الحقيقة هو

(*) واضح أن هاتين الكلمتين من اختراع المؤلف، فلا وجود لهما فى المعجم، ولا أحد يعرفهما أو يستخدمهما، وهما هنا للتمثيل للفكرة التى شرحها سوسير، (المترجم).

القمة ذاتها، وشيئاً فشيئاً يدرك الإنسان كيف أن كثيراً من الوقائع المختلفة ليس سوى تفريعات أو نتائج خبيئة لهذه الحقيقة» (إنجلر، ص ١٥٣)(*). وهناك أشياء تتعلق بالطبيعة الاعتباطية للعلامة أكثر من تلك التى تتعلق بالعلاقة الاعتباطية بين الدال والمدلول، ولذا ينبغى لنا أن نمضى قدماً.

ومن خلال ما قلته حتى الآن عن الدال والمدلول ربما مال المرء إلى التفكير فى اللغة بوصفها سجلاً لأسماء الأشياء؛ أى سلسلة من الأسماء التى اختيرت اعتباطياً ثم ألحقت بمجموعة من الأشياء أو التصورات الذهنية. ويقول **سوسير** إنه من السهل للغاية التفكير فى اللغة بوصفها سجلاً للأسماء، وجعل حكاية الإنجيل عن تسمية آدم لأنواع الحيوان وصفاً لطبيعة اللغة ذاتها. وإذا قال بعض الناس إن التصور الذهنى لكلمة كلب dog قد أدته أو عبرت عنه كلمة dog فى اللغة الإنجليزية، وكلمة chien فى الفرنسية، وكلمة Hund فى الألمانية، كان معنى هذا أن كل لغة لديها اسم اعتباطى لتصور ذهنى سابق فى الوجود على أى لغة وعلى نحو مستقل عنها.

ولو أن اللغة كانت مجرد سجل للأسماء الخاصة بجملة من التصورات الذهنية الكونية، لكان من السهل القيام بالترجمة من لغة إلى أخرى؛ إذ إن المرء عندئذ سيستبدل فى بساطة بالاسم الفرنسى للتصور الذهنى الاسم الإنجليزى. ولو أن اللغة كانت على هذا النحو لأصبحت كذلك عملية تعلم لغة جديدة أيسر كثيراً مما هى عليه. ولكن أى إنسان حاول القيام بأى من هذين العملين(**) قد انتهى – للأسف – إلى قدر هائل من الأدلة المباشرة على أن اللغات ليست سجلات للأسماء، وأن التصورات الذهنية أو المدلولات فى إحدى اللغات قد تختلف اختلافاً جذرياً عنها فى لغة أخرى. إن كلمة يحب aimer الفرنسية لا تنتقل بصورة مباشرة إلى الإنجليزية، إذ لابد للمرء أن يختار بين to like وto love ؛ وكلمة démarrer (الانطلاق) الفرنسية

(*) يشير المؤلف هنا إلى الطبعة المحققة للكتاب المنسوب إلى **سوسير**، التى نشرها رودلف إنجلر Rudolf Engler فى فيسبادن ، وقامت أساساً على مذكرات الطلبة. (المترجم).

(**) يقصد العملين المذكورين هنا، وهما الترجمة من لغة إلى لغة، وتعلم لغة جديدة (المترجم).

تتضمن فى فكرة واحدة المدلولين الإنجليزيين: مدلول البدء starting، ومدلول التصاعد accelerating؛ والفعل يعرف to know فى الإنجليزية يغطى مساحة مدلولين فرنسيين هما connaître و savoir؛ والتصوران الذهنيان للنذل wicked وللمدلل pet فى اللغة الإنجليزية ليس لهما مقابل حقيقى فى الفرنسية؛ ومرة أخرى فإن ما تسميه الإنجليزية «الأزرق الحائل» Light blue والأزرق الداكن، وتتعامل معهما بوصفهما درجتين للون واحد، هما فى روسيا لونان أوليان متمايزان. وهكذا تشكل كل لغة العالم أو تنظمه على نحو مختلف. ثم إن اللغات لا تكتفى بمجرد تسمية صنوف الموجودات؛ إذ إنها تشكل تصنيفاتها الخاصة كذلك.

أضف إلى هذا انه لو كانت اللغة مجموعة من الأسماء الموضوعة للتصورات الذهنية القائمة على نحو مستقل، إذن لوجب أن تظل هذه التصورات الذهنية ثابتة على مدى التطور التاريخى للغة ما. لكن الدوال قد تتطور، والنسق الخاص بالأصوات التى ارتبطت بتصور ذهنى معين يمكن ان يعدل، كما يمكن الربط بين نسق معين من الأصوات وتصور ذهنى مختلف. ويحدث عَرَضًا بطبيعة الحال ان يلزم وضع علامة لتصور ذهنى جديد انتجته التغيرات التى تحدث فى العالم، ولكن التصورات الذهنية ذاتها، بوصفها كينونات مستقلة عن اللغة، لن تكون خاضعة للتطور اللغوى. ومع ذلك فإن تاريخ اللغات فى الحقيقة مليء بالأمثلة على انتقال التصورات الذهنية، مغيرة بذلك لحدودها. وعلى سبيل المثال فإن كلمة cattle الإنجليزية كانت فى وقت ما تعنى الملكية بصفة عامة؛ وشيئاً فشيئاً صارت مقصورة على الممتلكات من ذوات الأقدام الأربع (وهو صنف عام جديد)، ثم حصلت أخيراً على معناها الحديث الخاص بالأبقار المستأنسة. ومرة أخرى فإن الشخص الأحمق Silly كان ذات يوم شخصاً سعيداً ومباركاً وورعاً؛ وشيئاً فشيئاً تغير هذا التصور الذهنى الخاص؛ فالتصور الذهنى القديم للحمق تحور؛ وكان الشخص الأحمق فى أوائل القرن السادس عشر شخصاً بريئاً وعاجزاً، بل إنه يستحق الشفقة. وقد استمر التصور الذهنى فى التغير إلى أن أصبح الأحمق آخر الأمر شخصاً

ساذجاً، وسخيفاً، وربما كان غبياً كذلك.

ولو أن اللغة كانت سجلاً للأسماء لكان لزاماً علينا أن نقول إن هناك عدداً من التصورات الذهنية المنفصلة، وأن الدال *أحمق* silly قد نسب أولاً إلى واحد منها ثم إلى واحد آخر. ولكن من الواضح أن هذا لم يحدث؛ فالتصور الذهنى المرتبط بالدال *أحمق* silly، كان يغير حدوده على الدوام، ويغير شيئاً فشيئاً من صورته الدلالية، مشكلاً بذلك العالم بطرق تختلف من حقبة زمنية إلى الحقبة التى تليها. وقد تطور الدال كذلك عَرَضاً، خاضعاً فى ذلك لتعديل فى حرف العلة الأساسى به.

ما معنى هذا؟ وما علاقته بالطبيعة الاعتباطية للعلامة؟ إن اللغة ليست سجلاً للأسماء؛ ومن ثم فإن المدلولات فيها ليست تصورات ذهنية سابقة الوجود، ولكنها تصورات متغيرة وطارئة، تختلف من حالة من حالات اللغة إلى أخرى. ولما كانت العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية، ولما لم يكن هناك سبب ملح يجعل أحد التصورات الذهنية أولى من غيره بأن يلحق بدال بعينه، لم يكن هناك – لذلك – خاصية ملازمة ينبغى للتصور الذهنى الاحتفاظ بها من أجل أن يعد مدلولاً لهذا الدال. ويستطيع المدلول المرتبط بدال أن يتخذ أى شكل؛ فليس هناك معنى صميم يتحتم عليه الاحتفاظ به من أجل أن يعد المدلول الملائم لهذا الدال. ومن هنا فإن الحقيقة القائلة: إن العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية تعنى أنه مادام قد انتفى أن يكون هناك تصورات كونية ثابتة،أو دوال كونية ثابتة، كان المدلول نفسه اعتباطيًّا، وكذلك كان الدال. ومن ثم ينبغى لنا أن نتساءل، مثلما صنع **سوسير**، عما يتحدد به الدال أو المدلول؛ وستقودنا الإجابة إلى مبدأ غاية فى الأهمية، فحواه أن الدال والمدلول كليهما كينونتان قائمتان على التعالق(*) أو التخالف الصرف(**)، ولأنهما اعتباطيتان فقد كانتا متعالقتين؛ وهذا مبدأ يتطلب الشرح.

(*) أى يتحدد معناهما من خلال علاقتهما بغيرهما وليس لهما معنى خاص بهما، (المترجم).

(**) أى يختلفان ويتفاوتان وفقاً للظروف المتغيرة، (المترجم).

طبيعة العناصر اللسانية:

ينسب سوسير أهمية عظيمة – أعظم مما قد يبدو فى الدروس المنشورة – إلى حقيقة أن اللغة ليست سجلاً للأسماء، لأننا مالم ندرك هذا لن نستطيع أن نفهم التفريعات الكاملة للطبيعة الاعتباطية للعلامة. فاللغة لا تعين فى بساطة أسماء اعتباطية لمجموعة من التصورات الذهنية القائمة على نحو مستقل. إنها تقيم علاقة اعتباطية بين دوال من اختيارها الخاص من جهة، ومدلولات من اختيارها الخاص، من جهة أخرى. ولا يقتصر الأمر فى كل لغة على إنتاج مجموعة مختلفة من الدوال، مشكلة بذلك الكيان المتجانس المستمر للصوت، ومقسمة له بطريقة متميزة، بل تنتج كل لغة مجموعة مختلفة من المدلولات، فهى تملك طريقة متميزة، ومن ثم «اعتباطية»، لتنظيم العالم فى تصورات ذهنية ومقولات.

ومن الواضح أن النسقين الصوتيين فى كلمتى ***fleuve*** و ***rivèr*** هما دالان فى اللغة الفرنسية وليسا كذلك فى اللغة الإنجليزية، فى حين أن كلمتى **river** و **stream** إنجليزيتان وليستا فرنسيتين. على أن تنظيم المستوى التصورى – وإن كان ذلك أقل وضوحاً ولكن أكثر أهمية – هو كذلك مختلف فى اللغتين الإنجليزية والفرنسية. فالدال *river* يتعارض مع الدال *stream* على أساس الحجم، فى حين أن الدال *fleuve* يختلف عن الدال *river* لا لأنه أكبر بالضرورة بل لأنه يصب فى البحر، على خلاف الدال *river*. وفى إيجاز أقول إن الدالين *fleuve* و *rivière* ليس لهما مدلولان أو تصوران فى اللغة الإنجليزية؛ وإنهما يمثلان تشكيلاً مختلفاً للمستوى التصورى.

وتدلنا حقيقة أن هاتين اللغتين تؤديان عملهما على نحو بالغ الجودة عن طريق التشكيلات التصورية أو الفروق المختلفة – تدلنا على أن هذه الأقسام ليست طبيعية أو حتمية أو ضرورية، ولكنها – بمعنى ما مهم – اعتباطية. ومما هو واضح الأهمية أن لكل لغة طرقاً للكلام عن المجارى التى يتدفق فيها الماء، ولكنها تستطيع أن تقيم فروقها التصورية فى هذا المجال استناداً إلى واحد من عدد كبير من الطرق المختلفة (كالحجم،

obeikandi.com

وسرعة التدفق، والانتظام أو التعرج، واتجاه التدفق، والعمق، والصلاحية للملاحة... إلخ)، ولا يقتصر الأمر فى اللغة على قدرتها على اختيار دوالها؛ ففى وسعها أن تميز جملة متنوعة من الإمكانات التصورية بأى طريقة شاءت.

وإضافة إلى ذلك - ونحن نصل هنا إلى مسألة مهمة - تعنى حقيقة أن هذه التصورات أو هذه المدلولات أقسام اعتباطية فى كيان متصل ومستمر، أنها ليست كينونات مستقلة يحدد كل منها بماهية من نوع ما، ولكنها أفراد فى نظام تحددها علاقاتها بالأفراد الآخرين فى هذا النظام. إننى إذا أردت أن أشرح لشخص ما معنى كلمة *stream* (جدول الماء) كان لزاماً على أن أشرح الاختلاف بين الجدول والنهر *river* وبين الجدول والنهير *rivulet*، وهكذا، وعلى غرار هذا لا أستطيع أن أشرح التصور الفرنسى لكلمة *revière* دون أن أصور الفرق بين revière وfleuve من جهة، وrevière وruisseau من جهة أخرى.

وتعد الكلمات الخاصة باللون مثالاً جيداً لخاصية العلامة هذه. فلنفترض أننا نريد أن نعلم شخصاً أجنبياً الألوان فى اللغة الإنجليزية، ولنفترض كذلك أن هذا الطالب بعينه بطىء فى التعلم بعض الشىء، وأنه ينتمى إلى ثقافة مختلفة، الأمر الذى يحتم علينا أن نستخدم خطة تعليمية فعالة. وربما تراءى لنا أن أفضل طريقة للتقدم فى العمل هى أن نأخذ فى مرة واحدة لوناً واحداً، كأن نبدأ - مثلاً - باللون البنى، وألا ننتقل منه إلى لون آخر حتى نتأكد من أننا تمكنا من اللون البنى. وعلى هذا فإننا نبدأ بأن نعرض عليه أشياء بنية اللون، ونخبره بأنها بنية. ولأننا نريد أن نكون دقيقين فإننا نكون قد جمعنا مجموعة من مائة شيء بنى اللون من أنواع مختلفة، وبعد أن نكون قد أضجرناه وأضجرنا أنفسنا على مدى عدة ساعات، نأخذه إلى حجرة أخرى، ونطلب إليه - لكى نختبر معرفته باللون البنى، أن يلتقط كل ما هناك من أشياء بنية اللون. وإنه ليشرع فى العمل، ولكن يبدو أنه يواجه صعوبة فى تقرير ما يختاره. ومن ثم فإننا نقرر فى يأس أننا لم نكن دقيقين على نحو كاف، وننتهى إلى البدء مرة أخرى فى اليوم التالى بعرض

خمسمائة من الأشياء البنية اللون.

ولحسن الحظ أن معظمنا لن يتبنى هذا الحل الميئوس منه، وأنه سيعرف الخطأ الذى وقع. ذلك بأن تلميذنا - مهما يكن من كثرة الأشياء البنية التى قد نعرضها عليه - لن يعرف معنى البني، ولن يكون قادراً على النجاح فيما اختبرناه فيه، حتى نعلمه التمييز بين البنى والأحمر، والبنى والأسفع(*)، والبنى والرمادى، والبنى والأصفر، والبنى والأسود. وهو لن يشرع فى فهم معنى البنى إلا عندما يدرك العلاقة بين البنى والألوان الأخرى. والسبب فى هذا هو أن «البنى» ليس تصوراً مستقلاً تعينه بعض الخصائص الأساسية، ولكنه مفردة فى نظام من مفردات الألوان، تعينها العلاقات بينها وبين المفردات الأخرى التى تحددها.

والواقع أن هذه الخبرة التعليمية المزعجة ستنتهى بنا إلى فهم كيف أننا - نتيجة لكون العلامة اعتباطية، ولكونها نتيجة تقسيم كيان متصل بطرق خاصة باللغة التى تنتمى إليها هذه العلامة - لن نستطيع تناول العلامة بوصفها كياناً مستقلاً، بل يتحتم علينا أن ننظر فيها على أنها جزء من نظام. والأمر لا يقتضى - تدقيقاً - فهم الأحمر والأصفر والرمادى والأسود وغيرها من أجل معرفة معنى البنى؛ والأصح أن يقال: إن مدلولات مفردات الألوان ليست سوى الناتج أو النتيجة لنظام من التفرقات. وإذ تقسم كل لغة الوان الطيف وتفرق بين المقولات التى تسميها ألواناً، فإنها تنتج نظاماً مختلفاً من المدلولات، يتمثل فى العناصر التى تعتمد قيمتها على العلاقات بين بعضها وبعض. ويقول سوسير معمماً المسالة:

> **إننا إذن نستكشف فى كل الأحوال لا الأفكار التى تطرح مسبقاً، بل القيم الصادرة عن النظام. وعندما نقول إن هذه القيم تتطابق مع التصورات فإن هذا معناه أن هذه التصورات تخالفية صرف، لا تحدد بصورة إيجابية عن**

(*) الأسفع هو البنى المشرب باصفرار. (المترجم).

طريق محتواها، بل تحدد سلبياً عن طريق علاقاتها بمفردات أخرى في النظام. وأدق خاصية لها هي أنها تمثل مالا يمثله غيرها.

(الدروس ١١٧، دروس ١٦٢).

فالبنى هو ما ليس أحمر أو أسود أو رمادياً أو أصفر.. إلخ. والشيء نفسه يصح بالنسبة إلى كل مدلول من المدلولات الأخرى.

وهذه نتيجة رئيسية وإن كانت مناقضة للطبيعة الاعتباطية للعلامة؛ وسوف نعود إليها بعد قليل، ولكن ربما كانت أيسر طريقة لإدراك هذه الفكرة الخاصة بالطبيعة التعالقية الصرف للوحدات اللغوية هي تناولها من زاوية أخرى.

ولننظر في مشكلة التماثل في العلوم اللغوية، أى المشكلة التى تنشأ عندما يعد ملفوظان أو جزءان من ملفوظ مثالين لعنصر لغوى مفرد. لنفترض أن شخصاً ما أخبرني قائلاً: «لقد اشتريت سريراً اليوم»، وأنني أجبته قائلاً: «وما نوع هذا السرير؟»، فماذا نقصد عندما نقول إن العلامة نفسها قد استخدمت مرتين في هذه المحادثة؟ وما الأساس الذي نستطيع بناء عليه أن ندعى أن مثالين أو شاهدين على العنصر اللغوى نفسه قد ظهرا في حوارنا؟ لاحظ أنني صادرت على المطلوب عندما دونت قدراً من ضجيج الأصوات كوّن منه كلانا كلمة **سرير**. والحق أن الأصوات الفعلية التى أطلقت لابد أنها كانت مختلفة بعض الشيء، أعنى مختلفة من وجهة نظر مادية وصوتية صرف. إن الأصوات تختلف، ونحن نستطيع بعد سماع بضع كلمات قليلة للغاية عن طريق التليفون أن نتعرف صوت أحد الأصدقاء لأن الإشارات المادية الفعلية التى أرسلها تختلف عن إشارات معارفنا الآخرين.

لقد أحدث كلانا، مخاطبى وأنا، ضجيجاً، ومع ذلك فقد أردنا بهذا أن نقول إننا أحدثنا الدال نفسه، أى استخدمنا **العلامة** نفسها؛ فليس الدال إذن هو الشيء نفسه المتمثل في الأصوات التى أحدثها هو أو أحدثتها أنا. إنه عنصر تجريدى من نوع ما، لا ينبغى أن يختلط مع النسق الفعلى للأصوات. ولكن أى نوع هو من العناصر؟ ومن

اى شىء يتكون؟ ويمكننا ان نعرض لهذا السؤال بالسؤال عن مدى إمكانية ان تختلف الأصوات الحادثة وأن تعد مع ذلك صياغات للدال نفسه. وهذا يماثل بطبيعة الحال السؤال الذى طرحناه ضمناً عن المدلول، الا وهو: إلى اى مدى يمكن للون ما أن يتغير ويعد مع ذلك بنياً؟ والإجابة فيما يخص الدال تماثل كثيراً الإجابة فيما يخص المدلول. ويمكن للأصوات الحادثة ان تختلف اختلافاً ملحوظاً (ليست هناك خاصية اساسية ينبغى لها ان تمتلكها)، مادامت لا تصل إلى حد الاختلاط بتلك الأصوات الخاصة بالدوال المتعارضة. إن لدينا حرية لا باس بها فى طريقة تلفظنا بكلمة **سرير bed**، مادام ما نقوله لا يختلط بكلمات مثل **bad**، و **bud**، و **bid**، و **bode**؛ ومثل **bread**، و **bled**، و **dead**، و **fed**، و **head**، و **led**، و **red**، و **said**، و **wed**، ومثل **beck**، و**bell**، و **bet**.

وبعبارة أخرى أقول إن وجوه الاختلاف هى المهمة؛ وإنه لهذا السبب كانت للعناصر حقيقة تعالقية صرف. وليس من السهل الإحاطة بهذا المبدأ، ولكن **سوسير** يقدم إلينا صورة تمثيلية له؛ فنحن على استعداد للتسليم اساساً بصحة ان القطار السريع المغادر من **جنيف** إلى **باريس** فى تمام الساعة الثامنة وخمس وأربعين دقيقة (٨ : ٤٥) هو القطار نفسه فى كل يوم، على الرغم من أن العربات تتغير يوماً بعد يوم، وكذلك القاطرة والأشخاص. وما يمنح القطار حقيقته هو موقعه من نظام القطارات، على نحو ما يبين الجدول الزمنى. ولنلاحظ أن هذه الحقيقة التعالقية هى على وجه التأكيد العامل المحدد؛ فالقطار يظل هو القطار نفسه حتى وإن تأخرت مغادرته نصف ساعة. والواقع أنه قد يتأخر دائماً فى مغادرته دون ان يكف عن كونه قطار الثامنة وخمس وأربعين دقيقة السريع، المغادر من **جنيف** إلى **باريس**. والمهم هو التمييز بينه وبين القطار السريع المغادر من **جنيف** إلى **باريس** فى تمام العاشرة وخمس وعشرين دقيقة (١٠ : ٢٥) مثلاً، أو القطار المحلى المغادر **جنيف** إلى **ديجون** فى تمام الساعة الثامنة وأربعين دقيقة، وهكذا دواليك.

والتناظر الآخر الذى يستخدمه **سوسير** لتصوير فكرة الحقيقة التعالقية يتمثل فى المقارنة بين اللغة والشطرنج؛ فمن الواضح أن العناصر الأساسية فى الشطرنج هى الملك والملكة والرخ والفارس والأسقف والبيدق(*)، ولا أهمية للشكل المادى الفعلى لهذه القطع، ولا للمادة التى صنعت منها؛ فقد يكون الملك فى أى حجم وأى شكل، مادامت هناك طرق لتمييزه عن سائر القطع؛ ولا حاجة بالرخين إلى أن يكونا من حجم واحد وشكل واحد، مادام من الممكن تمييزهما عن سائر القطع. وعلى هذا فإنه إذا ما فقدت قطعة من الشطرنج فإننا - كما يقول **سوسير** - نستطيع أن نستعيض عنها بأى نوع آخر من الأشياء، شريطة ألا يختلط هذا الشىء قط بالأشياء الممثلة للقطع ذوات القيم المختلفة (الدروس ١١٠، دروس ١٥٣ - ٥٤). وهكذا فإن الخصائص المادية الفعلية للقطع لا أهمية لها، مادامت هناك فروق من نوع ما - وأى فرق منها يكفى - بين القطع ذوات القيم المختلفة.

وعلى هذا يستطيع المرء أن يقول إن عناصر لعبة الشطرنج ليس لها هوية مادية؛ فليست هناك صفات مادية لازمة للملك أو البيدق؛ ولكن الهوية قاطبة هى وظيفة للفروق التى يشتمل عليها نظام ما. فإذا نحن طبقنا المثل على اللغة فسوف نكون فى وضع نفهم فيه دعوى **سوسير** المتعارضة، القائلة إنه فى نظام اللغة «ليس هناك سوى اختلافات ولا وجود معها لألفاظ ثابتة الدلالة» (الدروس ١٢٠، دروس ١٦٦). والمعتاد أننا عندما نفكر فى الفروق فإننا نفترض أن هناك شيئين يختلفان؛ ولكن ما يريده **سوسير** هو أن الدال والمدلول ليسا شيئين بهذا المعنى؛ فكما أننا لن نستطيع أن نقول أى شىء عن الشكل الذى ينبغى أن يكون للبيدق، سوى أنه يختلف عن الفارس والرخ إلخ، كذلك فإن الدال الذى نمثله فى كلمة **سرير** لا يتحدد بأى أصوات معينة

(*) أسماء هذه الوحدات الشائعة لدينا اليوم هى على الترتيب نفسه: الملك، الوزير، الطابية، الفرس، الفيل، العسكرى. (المترجم).

استخدمت فى التلفظ به. والأمر لا يقتصر على اختلاف الأصوات الفعلية من حالة إلى أخرى، ولكن من الممكن تنظيم اللغة الإنجليزية بحيث تكون الأصوات المستخدمة فى التعبير عن الدال **bet** قد استخدمت للدال **bed**، والعكس صحيح. فإذا حدثت هذه التغيرات كان التعبير عن عناصر اللغة مختلفاً، ولكنها ستكون مع ذلك هى العناصر نفسها بصفة أساسية (فالفروق نفسها تبقى، على مستوى الدال، ومستوى المدلول على السواء)، وستبقى اللغة هى اللغة الإنجليزية. والواقع أن اللغة الإنجليزية ستبقى أساساً هى اللغة نفسها إذا لم يتم التعبير قط عن عناصر الدال صوتياً، واقتصر التعبير عنها على نوع ما من الرموز المرئية.

ومن الواضح أننى حين أقول هذا فإننى أقوم بالتمييز بين عناصر النظام اللغوى وتجلياتها أو تحققاتها المادية الفعلية. وقبل مناقشة هذه التفرقة البالغة الأهمية فى تفصيل أكبر، قد يكون من المفيد أن أجمل خطوات التفكير المنطقى الذى أدى إليها؛ فقد بدأنا بملاحظة أنه ليست هناك رابطة طبيعية بين الدال والمدلول؛ ثم رأينا ونحن نحاول شرح الطبيعة الاعتباطية للعلامة اللغوية، أن الدال والمدلول كليهما يمثلان قسمين أو حدين اعتباطيين فى كيان متصل ومستمر (مجال صوتى من جهة، وحقل من التصورات من جهة أخرى)؛ وقد أدى بنا هذا إلى استنباط أن الدال والمدلول كليهما ينبغى تحديدهما على أساس علاقاتهما بالدوال والمدلولات الأخرى؛ ومن ثم انتهينا إلى النتيجة القائلة إننا إذا أردنا تحديد عناصر اللغة وجب علينا أن نفرق بين هذه العناصر التعالقية والتجريدية الصرف وتحققاتها المادية؛ والأصوات الفعلية التى نحدثها فى عملية الكلام ليست فى ذاتها عناصر فى النظام اللغوى، كما أن اللون الطبيعى الذى نعنيه عندما نقول عن كتاب ما إنه «بنى» ليس هو الشىء نفسه المتمثل فى العنصر اللغوى «بنى» (مدلولاً أو مفهوماً). وفى كلا الحالين – وكان **سوسير** على حق فى تأكيد هذه المسألة – يكون العنصر اللغوى صيغة form أكثر منه مادة substance، وتكون العلاقات التى

أفردته عن العناصر الأخرى هى المحددة له.

اللسان والكلام:

لقد وصلنا هنا فى تفريقنا بين النظام اللغوى وتجلياته الفعلية إلى التعارض الحاسم بين **اللسان** langue **والكلام** parole. **واللسان** هو نظام لغة ما، أى اللغة بوصفها نظاماً من الصيغ، فى حين أن **الكلام** هو الحديث الفعلى، أى الأفعال الكلامية التى تسمح بها اللغة. **واللسان** هو ما يتمثله الأفراد عندما يتعلمون لغة ما، أى أنه جملة من الصيغ أو «ذخيرة رسبتها الممارسة الكلامية لدى متكلمين ينتمون إلى الجماعة نفسها، ونظام نحوى قائم فى عقل كل متكلم لتلبية كل المقاصد والأغراض» (الدروس ١٣ – ١٤، دروس ٣٠). إن الناتج الاجتماعى هو الذى يسمح وجوده للفرد بممارسة قدرته اللغوية (إنجلر ٣١)، أما **الكلام** – فى الجانب الآخر – فهو جانب الإنجاز العملى للغة؛ وهو يتضمن عند **سوسير** التأليفات التى يستخدم المتكلم عن طريقها شفرة النظام اللغوى لكى يعبر عن أفكاره الخاصة، و«الآليات المادية النفسية التى تسمح له بتجسيد هذه التأليفات» (الدروس ١٤، دروس ٣١). وفى فعل **الكلام** يختار المتكلم عناصر من النظام اللغوى، ويجمع بينها، ويمنح هذه الصيغ مظهراً صوتيًّا عيانيًّا ونفسيًّا بوصفها أصواتاً ومعانى.

وإذا بدت هذه الملاحظات المتعلقة **بالكلام** مربكة بعض الشىء فلأنها تشتمل على مشكلة سنعود إليها. فإذا كان التأليف بين العناصر اللغوية ينتمى إلى **الكلام**، كان للقواعد النحوية syntactic rules إذن وضع ملتبس. ذلك بأن جعل **اللسان** نظاماً من الصيغ، **والكلام** عملية تأليف بين هذه الصيغ وتجسيد لها، لا يماثل على وجه الدقة جعل اللسان هو الملكة اللغوية، وجعل الكلام هو التدريب الذى تقوم به هذه الملكة؛ لأن الملكة اللغوية تشتمل على معرفة بكيفية التأليف بين العناصر، أى قواعد هذا التأليف. وهذه التفرقة الأخيرة بين **اللسان** بوصفه نظاماً **والكلام** بوصفه تحققاً هى أكثر جوهرية من

غيرها من التفرقات عند **سوسير** وفى التراث السوسيرى على السواء. ومع ذلك فليس تحديد الخصائص الخاصة بالكلام اساسياً هنا، مادامت الوظيفة الرئيسية والاستراتيجية للتمييز بين **اللسان والكلام** - كما يوضح **سوسير** - هى عزل موضوع البحث اللغوى. لقد ذهب **سوسير** إلى أن اللسان ينبغى أن يكون فى موضع الاهتمام الأول لدى عالم اللغة؛ وما يحاوله المرء عند تحليله للغة ما ليس هو وصف الأحداث الكلامية، بل تحديد العناصر وقواعد التأليف بينها، التى تشكل النظام اللغوى. إن اللسان أو النظام اللغوى يمثل موضوعاً متلاحماً قابلاً للتحليل؛ «فهو نظام من العلامات يكون الشىء الوحيد المهم فيه هو اتحاد المعانى والصور الصوتية» (الدروس ١٥، دروس ٣٢). وعندما يدرس المرء اللغة بوصفها نظاماً من العلامات فإنه يحاول أن يحدد ملامحها الرئيسية، اى تلك العناصر التى تعد حاسمة بالنسبة إلى الوظيفة الدالة للغة، أو - بعبارة أخرى - العناصر الفاعلة داخل النظام من حيث إنها تخلق العلامات عن طريق التمييز بين الواحدة منها والأخرى.

على هذا النحو يمدنا التمييز بين اللسان والكلام بمبدأ وثيق الصلة بالدراسات اللغوية. وقد كتب **سوسير** يقول: «عندما نفصل بين اللسان والكلام فإننا نفصل ما هو جماعى عما هو فردى، وما هو جوهرى عما هو إضافى أو عَرَضى (الدروس ١٤، دروس ٣٠). وإذا نحن حاولنا دراسة شىء يتعلق بظاهرة الكلام فإننا سندخل عندئذ منطقة مشوشة يصعب فيها للغاية تحديد ما له صلة بالموضوع وما لا صلة له. ولكننا إذا ركزنا الدراسة على اللسان فسوف تبرز فى داخله أو حوله جوانب مختلفة من اللغة والكلام. وإذا نحن مضينا مع هذه الفكرة عن النظام اللغوى استطعنا أن نسأل عما إذا كانت كل ظاهرة تنتمى إلى هذا النظام نفسه، أو كانت مجرد صورة لأداء العناصر اللغوية أو تحققها؛ وعندئذ ننجح فى تصنيف الحقائق الكلامية فى مجموعات يمكن دراستها فيها دراسة مفيدة.

وعلى سبيل المثال، يفضى التمييز بين اللسان والكلام إلى خلق نوعين متباينين من النظم لدراسة الصوت ووظائفه اللغوية، هما علم الأصوات اللغوية Phonetics، الذى يدرس الصوت فى الأحداث الكلامية من الوجهة المادية؛ وعلم الصوت Phonology، الذى لا يهتم بالوقائع المادية ذاتها، بل بالفروق بين وحدات الدال المجردة، التى تعمل فى حدود النظام اللغوى. (ومن المهم هنا ملاحظة أنه على الرغم من أن **سوسير** يقرر بصورة غير حاسمة أن الأصوات المادية ذاتها ليست جزءاً من اللسان، ممهدا بهذا الطريق للتمييز بين علم الأصوات اللغوية وعلم الصوت على نحو ما سبق تعريفهما، فإنه يستخدم هو نفسه هذين المصطلحين بمعنى مختلف للغاية. وسوف استمر فى استخدامهما بالمعنى الحديث الذى سبق تحديده).

ويرتد بنا التمييز بين علم الأصوات اللغوية وعلم الصوت إلى النقاط التى سبقت الإشارة إليها، المتعلقة بحقيقة الصيغة bed؛ فعلم الأصوات قد يصف الأصوات الفعلية الصادرة عندما ينطق المرء بهذه الصيغة، ولكن حقيقة الصيغة bed، كما بينا من قبل، لا تعتمد - بوصفها عنصرا مفردا فى اللغة الإنجليزية - على طبيعة هذه الأصوات الفعلية، بل على الفروق التى تفصل بين bed و bet و bad و head، إلخ. وعلم الصوت هو دراسة هذه الفروق الوظيفية؛ وكلمة « الوظيفية » هى ما ينبغى تأكيده هنا. وعلى سبيل المثال هناك اختلاف محسوس وملحوظ فى الملفوظات الإنجليزية بين « الصوت L » الذى يأتى قبل الحروف المتحركة (كما هو الشأن فى كلمة Lend وكلمة alive)، والذى يأتى قبل الحروف الساكنة أو فى نهاية الكلمات (كما هو الشأن فى كلمة melt أو كلمة Peel). فالاختلاف هنا اختلاف صوتى (فونوطيقى) حقيقى، ولكنه اختلاف لا يستخدم قط للتمييز بين علامتين. إنه ليس اختلافا وظيفيا، ومن ثم فإنه ليس جزءا من النظام الصوتى (الفونولوجى) للغة الإنجليزية. ومن جهة أخرى يستخدم الاختلاف بين الأصوات المتحركة فى كلمة feel وكلمة fill فى اللغة الإنجليزية للتمييز بين العلامات (قارن بين Keel و Kill، وبين Keen و Kin، وبين Seat و Sit، وبين heat و hit، وما

أشبه). وهذا التعارض يقوم بدور غاية في الأهمية في النظام الصوتي (الفونولوجي) للغة الإنجليزية، حيث يخلق عددا كبيرا من العلاقات المتمايزة.

كذلك فإن التمييز نفسه بين ما ينتمي إلى أحداث لغوية بعينها وما ينتمي إلى النظام اللغوي نفسه يكون تمييزا مهما في مستويات أخرى كذلك، وليس في مستوى الصوت على وجه التحديد. ففي وسعنا أن نميز – على سبيل المثال – بين الملفوظ بوصفه عنصرا **كلاميا**، والجملة بوصفها عنصرا **لسانيا**. وقد يكون ملفوظان مختلفان تجليين للجملة نفسها. ولهذا فإننا نواجه مرة أخرى الفكرة المحورية الخاصة بالتماثل في علم اللغة. إن الأصوات الفعلية والمعاني السياقية للملفوظين ستختلف؛ وما يجعل الملفوظين مثلين لعنصر لغوي مفرد هو الفروق التي تمنح هذا العنصر حقيقة تعالقية.

وعلى سبيل المثال لو أن **كثبيرت** Cuthbert قال ذات مرة « أنا متعب »، فإن **أنا** تشير إلى **كثبيرت**؛ وفهم هذه الإشارة يعد جزءاً مهما في فهم العبارة. ومع ذلك فإن هذه الإشارة ليست جزءاً من معنى الجملة؛ لأن **جورج** قد ينطق كذلك بالجملة نفسها، وفي نطقه بها ستشير **أنا** إلى جورج. وفي إطار النظام اللغوي لا تشير أنا إلى أحد؛ فمعناها في النظام هو نتيجة لوجوه الاختلاف بين **أنا وأنت**، **وهو وهي**، **ونحن وهم**؛ وهو معنى يمكننا أن نوجزه في قولنا إن **أنا** تعني « المتكلم » في مقابل أي شخص آخر.

والضمائر تصور في وضوح الفارق بين المعاني التي تخص الملفوظات وحدها، والمعاني التي تخص عناصر في النظام اللغوي. وقد استخدم **سوسير** في تشخيص هذا الفارق مصطلحي الدلالة Signification و « القيمة » Valeur؛ فالعناصر اللغوية لها قيمة داخل النظام، أي معنى يكون نتيجة للتعارضات التي تحددها؛ ولكن عندما تستخدم هذه العناصر في عبارة ما تصبح ذات دلالة، أي تصبح تحققا أو تجليا سياقيا للمعنى. وعلى سبيل المثال إذا قال متحدث فرنسي "Jái vu un mouton" وقال متحدث إنجليزي "I saw a sheep" فالمحتمل أن يكون لعبارتيهما الدلالة نفسها، فهما يقرران شيئًا واحدا يتعلق بواقع الأمر (وهوعلى وجه التصريح أن المتكلم رأى خروفا في وقت مضى). ومع

ذلك فإن كلمتى mouton و sheep بوصفهما عنصرين فى نظاميهما اللغويين الخاصين ليس لهما معنى واحد أو قيمة واحدة؛ لأن كلمة "sheep"(*) تحدد عن طريق تعارضها مع "mutton"(**)، فى حين أن كلمة "mouton"، لا ترتبط بأى تفرقة من هذا النوع، ولكنها تستخدم للدلالة على الحيوان وعلى اللحم كليهما. وهنا تلوح بعض المشكلات الفلسفية التي لم يعرض لها **سوسير**؛ فربما رغب الفلاسفة على وجه الخصوص في أن يقولوا إن ما يسميه **سوسير** دلالة لعبارة ما، يشتمل على المعنى والمرجع كليهما. ولكن المسألة التى تعنى **سوسير** هى أن هناك نوعا من المعنى، هو المعنى التعالقى أو القيمة التعالقية، يقوم على أساس النظام اللغوى، ونوعا آخر من المعنى أو الدلالة، يشتمل على استخدام العناصر اللغوية فى مواقف التلفظ الفعلية.

وللتفريق بين اللسان والكلام نتائج مهمة فى أنظمة معرفية أخرى إلى جانب علم اللغة؛ لأن هذا التفريق هو فى جوهره تفريق بين المؤسسة والواقعة؛ أى بين النظام الأساسى الذى يسمح بقيام أنماط مختلفة من السلوك، والأمثلة الفعلية لهذا السلوك. وتؤدى دراسة النظام إلى بناء النماذج التى تمثل الصيغ، وإلى علاقتها بعضها ببعض، وإمكانات التأليف بينها؛ فى حين أن دراسة السلوك الفعلى أو الأحداث الفعلية قد تؤدى إلى بناء النماذج الإحصائية التى تمثل احتمالات قيام تآلفات بعينها فى ظل ظروف متغيرة.

وسوف نرى فى مناقشتنا لعلم العلامات (السيميوطيقا) فى الفصل الرابع كيف امتدت فكرة **اللسان** إلى حقول أخرى. ومع ذلك فإن دراسة اللسان في إطار علم اللغة نفسه يتضمن قائمة بالفوارق التى تخلق العلامات، وبقواعد التأليف، فى حين أن دراسة الكلام قد تفضى إلى شرح للاستخدام اللغوى، متضمنا التكرار النسبى لاستخدام صيغ معينة، أو تواليف من الصيغ التى ترد فى الكلام الفعلى. وقد قدم **سوسير** لعلم اللغة

(*) أى الخروف أو النعجة. (المترجم).

(**) أى لحم الضأن. (المترجم).

موضوعا مناسبا للدراسة عن طريق فصله بين اللسان والكلام، وقدم – من ثم – معنى أشد ما يكون وضوحا لما كان هذا العلم يقوم به؛ فلو أن الإنسان ركز على اللغة بما هى نظام لَعَرف ما كان يجتهد فى إعادة تشييده، ولأمكنه أن يحدد – من خلال هذا المنظور – الشاهد الملائم وكيف ينبغى تنظيمه.

وسوف نتناول بنية النظام اللغوى بمزيد من التفصيل، ولكن تظل هناك مسألة تتعلق بمفهوم اللسان ينبغى التركيز عليها هنا. ذلك أن القائمين على نشر عمل **سوسير** قاموا بتنظيم الدروس بحيث صارت تبدأ بالتمييز بين اللسان والكلام. وعلى هذا بدا **سوسير** في الصورة كما لو كان يقول إن اللغة كتلة مختلطة من حقائق متباينة المصادر، وأن الطريق الوحيد لجعلها شيئًا معقولا هو فرض شيء يسمى النظام اللغوى، وطرح أى شيء آخر جانبا. ومن هنا بدا ذلك التمييز لدى كثير من الناس قابلا للمراجعة إلى حد بعيد؛ فهو فرض ينبغى للمرأ قبوله دون مماحكة إذا هو أراد أن يمضى قدما. ولكن التمييز بين اللسان والكلام فى الحقيقة، كما تبين ملاحظات **سوسير**، وكما لابد أن يكون سياق المناقشة الذى تبنيناه هنا قد أوضح – هو نتيجة منطقية لطبيعة العلامة الاعتباطية ولمشكلة التماثل فى علم اللغة. وفى إيجاز أقول إن العلامة إذا كانت إذن اعتباطية فإنها، على نحو ما رأينا، تكون بمثابة كينونة تعالقية صرف، وإننا إذا أردنا أن نعرف العلامات ونعينها وجب علينا أن ننظر إلى نظام العلاقات والفوارق التى ننشئها. ومن ثم ينبغى لنا أن نميز بين المواد المختلفة التي تتجلى فيها العلامات، والصيغ الفعلية التى تشكل العلامات؛ فنحن عندما نقوم بهذا يكون ما عزلناه نظاما من الصيغ يشكل أساس السلوك أو التجلى اللغوى الفعلى. ونظام الصيغ هذا هو **اللسان**، وإن محاولة دراسة العلامات لتقودنا – لا محالة – إلى النظر إلى هذا النظام على أنه الموضوع الصحيح للدراسة اللغوية. وليس عزل **اللسان** – كما قد يتراءى فى **الدروس** المنشورة – نقطة انطلاق اعتباطية، ولكنه نتيجة لطبيعة العلامات ذاتها.

المنظوران الوصفى والتاريخى:

هناك نتيجة أخرى مهمة للطبيعة الاعتباطية للعلامة، عالجها نقاد **سوسير** كذلك

بوصفها إلزاما هو موضع شك ولا ضرورة له، المقصود به هو التمييز بين الدراسة **الوصفية** Synchronic للغة (دراسة النظام اللغوى فى وضع بعينه، دون الإشارة إلى الزمن)، والدراسة **التاريخية** diachronic (دراسة تطورها عبر الزمن). لقد ذهب البعض إلى أن **سوسير** فى تمييزه الصارم بين هذين المنظورين، وفى منحه الدراسة الوصفية للغة الأولوية، كان يتجاهل، أو - على الأقل - يطرح جانبا، حقيقة أن اللغة فى أساسها تاريخية وعارضة(*)؛ أى أنها كينونة فى تطور متصل. ولكن على النقيض من هذا كان إدراكه الأعمق من إدراك نقاده للتاريخانية الجذرية للغة هو على وجه التحديد السبب فى أنه أكد أهمية التمييز بين الحقائق المتعلقة بالنظام اللغوى والحقائق المتعلقة بالتطور اللغوى، حتى فى تلك الحالات التي يبدو فيها هذان النوعان من الحقائق متداخلين. وهنا يلوح ضرب من التناقض يتطلب الإيضاح.

ما الرابط فى اللغة بين الطبيعة الاعتباطية للعلامة والطبيعة التاريخية فى أساسها؟ وفى وسعنا أن نقول هذا بطريقة أخرى: فلو كان هناك نوع ما من الارتباط الجوهرى أو الطبيعى بين الدال والمدلول، لكانت العلامة عندئذ مشتملة فى صميمها على مركز لايتأثر بمضى الزمن، أو يقاوم التغيير على أقل تقدير، ولأمكن وضع هذا الجوهر الذى لايعتريه التغيير فى الجانب المقابل لتلك الملامح « العارضة »، التى تتغير يقينا من حقبة زمنية إلى أخرى. لكن الواقع أنه - كما رأينا من قبل - ليس هناك جانب من العلامة يعد خاصية ضرورية لها، ويقع - من ثم - خارج الزمن. إن اى جانب صوتى أو معنوى يمكن أن يتغير؛ وتاريخ اللغات ملىء بتغيرات تطورية جذرية فى جانبى الصوت والمعنى كليهما. إن كلمة Ping التى كانت تعني فى اللغة الإنجليزية القديمة « المناقشة » discus-sion، صارت مع مضى الزمن هى كلمة الشىء thing فى الإنجليزية الحديثة، بمعنى مختلف كل الاختلاف؛ وكلمة (theriakos) اليونانية، التى تعنى « ما له تعلق بحيوان مفترس » صارت إلى كلمة « دبس السكر » treacle الإنجليزية الحديثة. وكذلك الكلمة

(*) اى أنها طارئة على الحياة، شأنها شأن الأحداث التاريخية وكل ما هو تاريخى (المترجم).

اللاتينية «ساخن» Calidum صارت هى الكلمة الفرنسية الحديثة chaud (وتنطق مفتوحة مثل كلمة show الإنجليزية)، حيث يبقى المعنى هو هو، ولكن دون الاحتفاظ بأى عنصر صوتى أصلى. وفى إيجاز أقول: لا يحتوى الدال ولا المدلول على أى موضع مركزى أساسى لا يستطيع الزمن أن يمسه. ولأن العلامةاعتباطية فإنها تخضع للتاريخ خضوعا كليا،ويصبح الجمع فى لحظة بعينها بين دال بعينه ومدلول نتيجة عارضة للعملية التاريخية.

إن الحقيقة الماثلة فى أن العلامة اعتباطية، أو أنها عرضية برمتها، تجعلها خاضعة للتاريخ، ولكنها تعنى كذلك أن العلامات تتطلب التحليل بمعزل عن التاريخ. وليس هذا متناقضا كما قد يلوح؛ فلما لم يكن للعلامة جوهر لازم يتحتم استمراره، وجب تعريفها بأنها كينونة تعالقية، فى علاقاتها بالعلامات الأخرى. والعلاقات المناسبة هى تلك العلاقات التى تتاح في زمن بعينه. ويقول **سوسير** إن اللغة «منظومة من القيم الصرف، التى لا يحددها شيء سوى علاقاتها التى يتكرر تعديلها من وقت إلى آخر» (الدروس ٨٠، دروس ١١٦). ولأن اللغة برمتها كينونة تاريخية معرضة دائمًا للتغيير، فقد وجب على المرء أن يركز على العلاقات التي تتمثل فى حالة تزامنية بعينها، إذا كان عليه أن يحدد عناصرها.

وإذ يؤكد **سوسير** أولوية الوصف التزامنى Synchronic description فإنه يبرز عدم ملاءمة الحقائق التاريخية أو التعاقبية diachronic لتحليل اللسان. وسيتضح من خلال بعض الأمثلة السبب فى عدم ملاءمة المعلومة التاريخية. ففى اللغة الإنجليزية الحديثة يستخدم ضمير المفرد المخاطب **أنت** You للإشارة إلى شخص واحد وإلى كثيرين على السواء، كما أن هذا الضمير من الممكن أن يكون الفاعل أو المفعول فى الجملة. ومع ذلك ففى مرحلة أقدم من حياة اللغة كانت كلمة You تحدد من خلال تعارضها مع كلمة **Ye** من جهة (حيث كانت **Ye** ضميرا فاعلا وكلمة **You** ضميرا مفعولا به)، وتعارضها مع كلمة **thee** وكلمة **thou** من جهة أخرى (حيث كانت **thee** و **thou**

صيغتان للمفرد، وكانت **You** صيغة للجمع). وفى مرحلة متأخرة صارت **You** تستخدم كذلك بوصفها أسلوبا مهذبا فى مخاطبة شخص مفرد، شأنها شأن كلمة vous فى الفرنسية. وفى اللغة الإنجليزية الحديثة اليوم لم تعد كلمة **You** تحدد من خلال تعارضها مع Ye و thee و thou. وفى وسع المرء أن يعرف الإنجليزية الحديثة، ويتقن الكلام بها دون أن يعرف أن كلمة **You** كانت فى زمن ما صيغة للجمع والمفعول به. والمؤكد أن المرء إذا عرف هذا فلن يكون هناك مجال لأن تفيد هذه المعرفة جانبا من معرفته بالإنجليزية الحديثة. وسيبقى وصف كلمة **You** فى الإنجليزية الحديثة هو الوصف نفسه على وجه الدقة لو أن تطورها التاريخى كان يختلف كل الاختلاف؛ لأن كلمة You فى الإنجليزية الحديثة يحددها دورها فى الوضع التزامنى للغة.

وعلى نحو مماثل نجد الاسم الفرنسى Pas (بمعنى «خطوة») والظرف النكرة pas (بمعنى «لا») يشتقان تاريخيا من علامة واحدة؛ ولكن هذا لا أهمية له في وصف اللغة الفرنسية الحديثة، حيث تؤدى الكلمتان وظيفتيهما بطريقتين مختلفتين كل الاختلاف، وينبغى تناولهما بوصفهما علامتين متمايزتين. ولا أهمية فى الفرنسية الحديثة لما إذا كانت هاتان العلامتان ذات يوم علامة واحدة، كما هو الأمر فى الواقع، أو ما إذا كانتا ذات يوم علامتين متمايزتين كل التمايز، صار الدال المختلف فيهما متماثلا عبر التغيرات الصوتية (حدث هذا - على سبيل المثال - مع كلمة **Skate** الإنجليزية، حيث جمعت التغيرات الصوتية بين سمك الورنك fish skate، المأخوذة من كلمة skata فى اللغة الإسكنديناقية القديمة، والتزلج على الجليد ice skate، المأخوذة من كلمة schaats فى اللغة الهولندية). وإن محاولة دمج هذه الحقائق التاريخية فى شرح للنظام اللغوى المعاصر ستكون تشويها وتزييفا.

إن إصرار **سوسير** على ما بين المنظورات الوصفية والتاريخية من اختلاف، وعلى أولوية الوصف التزامنى، لا يعنى - مع ذلك - أنه خدع نفسه بالتفكير فى أن اللغة تقوم

بوصفها سلسلة من الأوضاع المتزامنة المتجانسة تجانسا كليا، كالإنجليزية فى عام ١٩٢٠، والإنجليزية فى عام ١٩٤٠، والإنجليزية فى عام ١٩٦٠. وبمعنى ما تبدو فكرة الوضع التزامنى خيالا(*) منهجيا. ذلك باننا عندما نتحدث عن النظام اللغوى فى الفرنسية فى زمن محدد، فإننا نقوم باستخلاصه من الحقيقة الواقعة التى تشتمل على عدد بالغ الضخامة من المتكلمين المواطنين، الذين قد تختلف نظمهم اللغوية على أنحاء متعددة. ومع ذلك فالنظام اللغوى للفرنسية حقيقة واقعة محددة، من حيث إن كل هؤلاء المتكلمين يفهم بعضهم بعضا، فى حين أن شخصا ما لا يتحدث إلا الإنجليزية لا يمكن أن يفهمهم. ولما كنا نرغب فى أن نمثل لهذه الحقيقة، وأن نتكلم عن النظام الذى يشترك فيه هؤلاء المتكلمون المواطنون، فإننا نتقدم ببيانات تتعلق بالنظام اللغوى فى وضع تزامنى بعينه.

أضف إلى هذا أنه إذا كانت فكرة الوضع المتزامن خيالا منهجيا فإنه من المهم أن نتذكر أن بياناتنا المتعلقة بالتطور التاريخى للغة هى كذلك خيالية بالقدر نفسه. ولنفترض أننى أرغب في أن ادعى ادعاء تاريخيا فحواه أن الصوت / a/ فى فرنسية القرن العشرين قد أصبح / a / (وانا اتبع هنا العرف الخاص فى وضع الصيغ الصوتية بين خطين مائلين)، فما معنى هذا؟ إن قولنا إن / a / قد أصبح / a / يفترض حدوث تحول لموضوع ما مع مضى الزمن، لكن الواقع أن هذا خيال تاريخى يلخص قدرا كبيرا من الحقائق المتزامنة(**)، القائلة إنه فى مرحلة مبكرة من القرن كان هناك متكلمون كثيرون يميزون بين حرفى a، كما هو الشأن فى كلمة (عجين) Pâte وكلمة (قائم) Patte، أو كلمة (عمل محدد) tâche وكلمة (عيب) tache، فى حين أنه ليس هناك الآن سوى عدد محدود من المتكلمين الذين يميزون بينهما، حتى ليمكن القول إن الأمر

(*) المقصود بالخيالى فى هذا السياق وفيما يلى هذا هو الشيء الافتراضى. (المترجم).

(**) أى أن ما يظن أنه منظور تاريخى إنما يعتمد فى حقيقته على رصد سابق للحقائق اللغوية المتزامنة - كما سيتضح فيما بعد. (المترجم).

سيئول بهما إلى a واحدة فى اللغة. وطبيعى أن هذا القول نفسه قد يكون إفراطا فى التبسيط مخلا، حيث إن بعض المتكلمين سيسمعون التفرقة ولكنهم هم أنفسهم لن يستخدموها، فى حين أن آخرين لن يستخدموها إلا فى المناسبات الرسمية نسبيا.

ووفقًا لما يبينه هذا المثل، يربط العرض التاريخى عنصرا مفردا يعزى إلى حالة من حالات النظام اللغوى بعنصر يعزى إلى حالة متأخرة من هذا النظام. ومع الأخذ بالطبيعة التعالقية للعناصر اللغوية، أى بحقيقة أن العلاقات الماثلة فى حالة النظام، الخاصة بهذه العناصر، هى التى تحدد هذه العناصر تحديدا تاما، يصبح القيام بهذا موضعا للشك، وغريبا عن مبدأ علم اللغة التزامنى (الوصفى). كيف يمكن تسويغ هذا؟ كيف يمكن للمرء أن يفترض حقيقة تاريخية؟

يذهب **سوسير** إلى أن الروايات التاريخية تشتق – على الرغم من اختلاف وضعها – من الروايات التزامنية (الوصفية). وهو يتساءل: ما الذى يسمح لنا بتقرير حقيقة أن كلمة mare اللاتينية صارت إلى mer (البحر) فى الفرنسية؟ ربما ذهب عالم اللغة التاريخى إلى أننا نعرف «أن **mare** صارت **mer** لأن الحرف الأخير هنا e، كما هو فى غير هذا الموضع، قد أسقط وتحول الحرف **a** إلى **e**. ولكن **سوسير** يذهب إلى أن افتراض أن تكون هذه التغيرات الصوتية المنتظمة هى التى تنشىء حلقة الوصل بين الصيغتين معناه عكس الأمور؛ لأن ما يمكننا من تحديد هذا التغير الصوتى هو معرفتنا الأصلية بأن صيغة ما قد صارت صيغة أخرى. «إننا نقوم باستخدام التوافق بين كلمة **mare** وكلمة **mer** لنقرر أن الحرف **a** قد تحول إلى الحرف **e**، وأن حرف **e** الأخير قد سقط» (الدروس ١٨٢، دروس ٢٤٩).

والواقع أن ما نفترضه فى ربطنا بين كلمتى **mare** و **mer** هو هذا: أن **mare**، و **mer**، وما يتوسطهما من الصيغ، تشكل سلسلة متصلة الحلقات من صور التماثل المتزامنة. وفى كل حقبة يمكننا عن طريق استعادتها أن نقول إن تغيرا قد وقع فيها، تكون هناك صيغة قديمة وصيغة جديدة، وتكونان مختلفتين من الناحية الفونيطيقية، ولكنهما

تكونان متماثلتين من الناحية الفونولوجية أو الوظيفية. وطبيعى أنهما ربما كانت لهما تداعيات مختلفة (على سبيل المثال ربما بدت إحدى الصيغ من طراز عتيق بعض الشيء)، ولكن من الممكن أن يستخدمهما المتكلمون بطريقة تبادلية(*). ولا شك فى أن بعض المتكلمين قد يلزمون الصيغة القديمة وأن آخرين منهم يفضلون الصيغة الجديدة؛ ولكن لما كانت الحركة من واحدة منهما إلى الأخرى لن تحدث اختلافا فى المعنى الفعلي، فسوف يكون هناك من منظور النظام تماثل تزامنى بين الصيغتين. وهذا هو معنى أن التماثل التاريخى يعتمد على سلسلة من التماثلات التزامنية.

وبناء على ما يقوله **سوسير** فيما يتعلق بمثال آخر، «يعنى التماثل التاريخى بين كلمتين مختلفتين كما تختلف كلمة **calidum** عن كلمة **chaud** (ساخن) - يعنى فى بساطة أن المرء قد انتقل من الكلمة السابقة إلى الكلمة التالية لها عبر سلسلة من التماثلات التزامنية» (الدروس ١٨٢، دروس ٢٥٠). فى مرحلة ما كانت كلمتا **calid-um** و **calidu** تتبادلان المكان فى الاستعمال، وكانتا متماثلتين من الناحية التزامنية، ثم صارتا فيما بعد **calidu** و **caldu**، ثم **caldu** و **cald**، ثم **cald** و **tsalt**، ثم **tsalt** و **tsaut**، ثم **tsaut** و **saut**، ثم **saut** أخيرًا **sot** (وهو نطق كلمة **chaud**). وعندما نتكلم عن تحولات كلمة ما ونفترض تماثلا تاريخيا فإننا نلخص في الحقيقة سلسلة ممحصة من التماثلات التزامنية. ويمضى **سوسير** فيقول: «وهذا هو السبب فى أننى قلت إن معرفة السبب فى أن كلمة «سادتى!» تحتفظ بتماثلها عندما تتكرر عدة مرات فى أثناء محاضرة ما، لها من الأهمية ما لمعرفة السبب فى أن كلمة **chaud** تماثل كلمة **calidum**. والواقع أن المشكلة الثانية ليست إلا امتدادا وتعقيدا للمشكلة الأولى». (الدروس ١٨٢، دروس ٢٥٠).

وعلى هذا لا يستطيع المرء أن يدعى أن علم اللغة التاريخى أقرب على نحو ما إلى حقيقة اللغة، فى حين يكون التحليل التزامنى عملا خياليا؛ فالقرابات التاريخية مشتقة

(*) أى أنهم يستخدمون الصيغة القديمة أحيانا والصيغة الجديدة أحيانا. (المترجم).

من التماثلات التزامنية؛ هذا فضلا عن أنها حقائق تنتمى إلى نظام مختلف. ومن الناحية التزامنية، تعد التماثلات التاريخية تشويها؛ لأن العلامات لأقدم والأحدث، التى ترتبط بها هذه التماثلات، لا تجمع بينها خصائص مشتركة. وليس لأى علامة من الخصائص سوى الخصائص التعالقية الخاصة التى تحددها فى إطار نظامها التزامنى الخاص. ومن منظور نظم العلامات الذى هو آخر الأمر المنظور الذى يحظى بالاهتمام عند تناول العلامات، تتباين العلامات الأقدم والعلامات الأحدث تباينا كليا.

ومن هنا كانت أهمية الفصل بين المنظورات التزامنية (الوصفية) والمنظورات التاريخية، حتى عندما تتداخل الحقائق التى تعالجها هذه المنظورات، تداخلا لا فكاك منه. وهذه مسألة ينبغى للمرء أن يؤكدها؛ لأن علماء اللغة الذين يعارضون تمييز **سوسير** الجذرى بين أساليب التناول التزامنية وأساليب التناول التاريخية، ويرغبون فى تصور منظور تاريخى عام ومركب، غالبا ما يشيرون إلى تشابك الحقائق التزامنية والتاريخية كما لو كان هذا التشابك يدعم قضيتهم. وقد كان سوسير على وعى تام بالتداخل بين الحقائق التزامنية والحقائق التاريخية؛ فالواقع أن المشكلة برمتها عنده كانت هى مشكلة الفصل بين هذه العناصر عندما تختلط، لأن التحليل اللغوى لا يمكن أن يظفر بتماسكه إلا بهذه الطريقة. إن فى الصيغ اللغوية جوانب تزامنية وجوانب تاريخية ينبغى الفصل بينها، لأنها حقائق تختلف فى نظامها كما تختلف فى شروط وجودها.

ويذهب **سوسير** إلى أن المركب التاريخى العام محال، نتيجة للطبيعة الاعتباطية للعلامات اللغوية. وربما استطاع المرء فى أنواع أخرى من النظم أن يجمع بين المنظورات التزامنية والمنظورات التاريخية: «فلما كانت القيمة كامنة فى الأشياء نفسها وفى علاقاتها الطبيعية، كان فى وسع المرء – إلى حد ما – أن يقتفى أثر هذه القيمة عبر الزمن، متذكرا أنها تعتمد فى كل لحظة على نظام من القيم يشاركها الوجود». (الدروس ٨٠، دروس ١١٦). ومن هنا سوف تعتمد قيمة قطعة من الأرض فى لحظة بعينها على عدد آخر ضخم من العوامل المؤثرة فى النظام الاقتصادى، ولكن القيمة

opendkanoi.com

مستقرة على نحو ما في طبيعة الأرض ذاتها، ولن تشتمل التنويعات على مجرد استبدال قيمة اعتباطية بأخرى. ولكن في حالة اللغة، حيث لا يكون لقيمة العلامة أي أساس طبيعي أو حدود ملازمة، يكون للتغير التاريخي طابع مختلف. ويقول **سوسير** إن عناصر لغة ما «تخضع لتطورها التاريخي الخاص على نحو مجهول نهائيا في المجالات التي ترتبط فيها الصيغ أدنى درجات الارتباط الطبيعي بالمعنى» (إنجلر، ١٦٩). ولما لم يكن أي دال أكثر ملاءمة من الناحية الطبيعية للمدلول من أي دال آخر، فإن التغير الجوهري يقع مستقلا عن نظام القيم: «فالحقيقة التاريخية واقعة لها منطقها؛ أما النتائج التزامنية الخاصة التي قد تنشأ عنها فهي غريبة عنها كل الغرابة» (الدروس ٨٤، دروس ١٢١).

وحجة **سوسير** هنا حجة مركبة. والدعوى تقول إن الحقائق التاريخية لها نظام يختلف عن نظام الحقائق التزامنية من حيث إن التغير التاريخي ينشأ خارج النظام اللغوي. والتغير إنما ينشأ في الأداء اللغوي، أي في الكلام وليس في اللسان؛ والشيء الذي يعتريه التعديل هو العناصر المفردة في النظام الذي تتحقق فيه. ثم إن التغيرات التاريخية تؤثر في النظام آخر الأمر، حيث يتكيف النظام معها، ويفيد من نتائج التغير التاريخي، ولكن ليس النظام اللغوي هو ما يحدث هذه التغيرات.

والشيء الذي يعارضه **سوسير** هنا هو فكرة الغائية في علم اللغة؛ وهي الفكرة التي تقول إن هناك غاية ما تعمل التغيرات اللغوية في الاتجاه نحوها، كما أنها تحدث من أجل تحقيق هذه الغاية. ولا تحدث التغيرات **من أجل أن** تنتج وضعا جديدا للنظام؛ وما يحدث هو أن «عناصر بعينها تتغير، بغض النظر عن تماسكها داخل النظام في مجمله»[١].

(١) هناك استثناء يناقشه **سوسير** في استفاضة ولكنني أتركه جانبا هنا، هو الظاهرة المعروفة باسم «القياس» analogy، التي تنشأ فيها صيغ جديدة قياسا على صيغ قائمة. وهذا عامل مهم في التغير اللغوي، ولكن **سوسير** يذهب إلى أن هذه الظاهرة تزامنية بصفة أساسية. ولمزيد من المناقشة يرجع إلى الفصل الثالث ص ٨٠ – ٨١.

وهذه التغيرات المنفصلة لها نتائج عامة بالنسبة إلى النظام، حيث تتغير شبكة علاقاته. ومع ذلك «فليس الأمر أن نظاما ما قد أنتج نظاما آخر، بل أن عنصرا ما من النظام الأول قد تغير، وأن هذا كان كافيا لأن يُخرج إلى الوجود نظاما آخر (الدروس ٨٥، دروس ١٢١). إن التغيرات جزء من عملية تطورية مستقلة، يتكيف النظام معها.

وتتضمن الحقيقة التاريخية استبدال صيغة بأخرى؛ وهذا الاستبدال ليس له فى ذاته أى دلالة؛ فهو من منظور النظام اللغوى غير وظيفى. أما الحقيقة التزامنية فهى علاقة أو تعارض بين صيغتين قائمتين فى وقت واحد؛ وهى علاقة لها دلالتها، من حيث إنها تحمل المعنى خلال اللغة. وكلما كانت للتغيير اللغوى أصداء فى النظام، نشأ موقف يمتزج فيه هذان النوعان من الحقائق، ويكون من السهل اختلاط الأمر فيهما. ولكنهما يختلفان اختلافا كبيرا، وينبغى الفصل بينهما. ولكى ندرك الفرق وماله من أهمية، لننظر فى بعض الأسماء فى اللغة الإنجليزية، التى تجمع فى صيغ للجمع غير عادية، مثل **feet** (أقدام)، و **geese** (إوز)، و **teeth** (أسنان)؛ فما جوانب التطور التزامنية والتاريخية فى هذه الصيغ؟.

فى اللغة الأنجلوسكسونية القديمة يبدو أن صيغ المفرد والجمع لهذه الأسماء كانت على النحو الآتى:

المرحلة الأولى

	المفرد	الجمع	
foot	fót	fóti	(تنطق مثل foat أو foati تقريبًا)
goose	gós	gósi	
tooth	top	tópi	(حيث th = b)

ثم تأثرت صيغ الجمع بتغير صوتى (فونوطيقى) يعرف بـ «تغير حرف الـ i».

(i mutation)؛ فعندما جاء حرف الـ i تاليا لمقطع منبور، تأثر الحرف المتحرك في المقطع المنبور، واصبح للحروف المتحركة الخلفية الصدارة، حتى إن ó صارت é. وقد نتج عن ذلك:

المرحلة الثانية

	المفرد	الجمع
foot	fót	féti
goose	gós	gési
tooth	tóp	tépi

ثم في مرحلة صوتية (فونوطيقية) ثانية سقط حرف النهاية i، ونتج عن هذا:

المرحلة الثالثة

	المفرد	الجمع
foot	fót	fét
goose	gós	gós
tooth	tóp	tép

هذه الصيغ صارت، عن طريق النقلة الكبرى للحرف المتحرك فى اللغة الإنجليزية التى صار فيها الحرف ó إلى ú، وصار الحرف é إلى í – صارت عندئذ هى الصيغ الحديثة (الدروس ٨٣؛ دروس ١٢٠).

فى المرحلة الأولى كان الجمع مميزا بوجود الحرف i فى آخره. وهذه حقيقة تزامنية، بمعنى أن التعارض بين حضور الحرف i وغيابه قد ميز التعارض بين المفرد والجمع. ثم جاءت مرحلة صوتية (فونيطيقية) لا علاقة لها بصيغ الجمع أو بنحو اللغة فى الحقيقة

obeikandi.com

على وجه الإطلاق، صحبها تغير فى تلك الصيغ التى تنتهى بالحرف i. وهذا التغير لاعلاقة له بصيغ الجمع (أى لا علاقة بالتعارض التزامنى بين المفرد والجمع)، حيث إنه كان يحدث كلما جاء الحرف i تاليا لمقطع منبور - حتى وإن حدث ذلك فى الأفعال، على سبيل المثال. ولكن لما كان هذا التغير قد حدث فقد تأثر به عدد ما من صيغ الجمع، محدثا فى المرحلة الثانية حقيقة تزامنية جديدة. ونتيجة لحادثة لا علاقة لها بصيغ الجمع فى ذاتها، صارت جملة من صيغ الجمع مميزة بتعارض مزدوج: تعارض بين حضور الحرف i فى آخر الكلمة وغيابه، كما هو الشأن من قبل؛ وتعارض بين الحرف e فى الجمع والحرف o فى المفرد. ثم مع سقوط الحرف i الأخير، الذى لم يكن له كذلك أى تعلق بصيغ الجمع فى ذاتها، أصبح هناك وضع تزامنى جديد. لقد تغير شكل صيغ الجمع خلال حادث تاريخى؛ ولكن لما كان هناك اختلاف ما يزال قائمًا بين صيغ المفرد وصيغ الجمع (الحرف o فى مقابل الحرف e)، كان النظام اللغوى قادرا على استخدام هذا الفارق بوصفه تعارضا حاملا للمعنى.

وقد كتب **سوسير** يقول: «إن هذه الملاحظة تعيننا على فهم أشمل لطبيعة وضع لغوى يخضع للمصادفة.. فالوضع الذى نتج عن التغير لم يكن قد قصد به أن يومىء إلى المعانى التى أسبغت عليه. لقد صار هناك وضع لعبت فيه المصادفة (ظهرت فيه الصيغتان fot: fet)؛ وقد استغله المتكلمون بجعله دالا على التمييز بين المفرد والجمع. ولم تكن الصيغتان fot: fit أكثر ملاءمة لهذا الغرض من الصيغتين fot: foti؛ فالعقل فى كلا الوضعين ينفث الحياة فى المادة المتاحة (الدروس ٨٥؛ دروس ١٢١- ١٢٢)، ومن منظور النظام اللغوى تكون الحقائق الدالة هى الحقائق التزامنية. وقد تطرح الأحداث التاريخية صيغا جديدة تصبح فيما بعد جزءا من نظام جديد؛ ولكن المرء - وفقا لما يقوله سوسير - «فى المنظور التاريخى يتناول الظواهر غير المتصلة بالنظم، وإن كانت تتحكم فيها». (الدروس ٨٥، دروس ١٢٢).

لقد كان **سوسير** يلح على ضرورة التمييز بين المنظورات التزامنية والمنظورات

التاريخية فى كل الأحوال، ولكن مناقشته لم تعرض إلا للتغيرات الصوتية. وبطبيعة الحال كان للأمثلة التى ناقشها نتائج صرفية ونحوية داخل النظام؛ وربما كان لهذه التعديلات آخر الأمر نتائج دلالية، ولكنه لم يتناول قط مشكلة التغير الدلالى ذاتها، أى التغيرات التاريخية للمدلولات. وهو يسلم، فى هذه المناسبة، بأن المرء بمجرد أن يترك مستوى الصوت يصبح الاحتفاظ بالتمييز المطلق بين التزامنى والتاريخى أكثر صعوبة (الدروس ١٤١؛ دروس ١٩٤)؛ ولكن النظرية تحمل المرء على أن يصنع هذا؛ وفى وسع المرء أن يستكشف حالة مقبولة ظاهريا وإن كانت غير دارجة، لامتداد عملية التمييز إلى علم الدلالة.

وهذا الجدال يماثل كثيرا ذلك الجدال الذى يتعلق بتغيرات الصوت. لنفترض أن شخصا ما تجرد لدراسة تغير معنى كلمة **kunst** (فن) فى اللغة الجرمانية القديمة الوسطى بين سنة ١٢٠٠ وسنة ١٣٠٠ تقريبا؛ فما الذى سيكون هنا تزامنيا وما الذى سيكون تاريخيا؟ لكى يحدد المرء تغير المعنى فإنه يحتاج إلى معنيين، وهذان المعنيان لا يمكن تقريرهما إلا من خلال النظر فى الحقائق التزامنية؛ كالعلاقات بين المدلولات في وضع بعينه من أوضاع اللغة، التى تحدد المجال الدلالى لكلمة "kunst". ففى مرحلة مبكرة كانت هذه الكلمة تدل على معرفة أو كفاءة تتسم بدرجة عالية من التهذيب، فى مقابل المهارات الأدنى والأكثر ارتباطا بالحرفية (الحرث)، كما تدل على الإنجاز الجزئى فى مقابل الحكمة "wisheit" العامة. وفى مرحلة تالية كان التعارضان الأساسيان اللذان حددا معنى هذه الكلمة مختلفين؛ فكان الدنيوى فى مقابل الروحى ("wisheit")، والتقنى ("wizzen") فى مقابل غير التقنى. ومعنى هذا أن ما لدينا هو تنظيمان مختلفان لحقل دلالى. وسوف يقوم العرض التاريخى على أساس هذه المعلومة التزامنية. ولكن إذا أريد للعرض التاريخى أن يشرح ما حدث لكلمة "kunst"، كان عليه أن يرجع إلى عوامل أو أسباب غير لغوية (كالتغيرات الاجتماعية، والعمليات النفسية، إلخ)، حدث أن كان لها أصداء فى النظام الدلالى.

obeikandi.com

أما فيما يتعلق بتحليل اللغة فإن الحقائق الملائمة لهذا هى التعارضات التزامنية. ذلك بأن المنظور التاريخى يتناول علاقات قرابة فردية لا يمكن تعيينها إلا فى ضوء نتائج التحليل التزامنى، كما أنه يعتمد على ما أسماه **استيفن أولمان** Ullmann Stephen «التنوع والتعقيد اللا نهائيان فى الأسباب التى تحكم التغير الدلالى»، من أجل شرح الانتقال من حالة إلى أخرى. ولكن معرفة المعانى السابقة والأسباب الخاصة للتغير لن تكون ملائمة لشرح العلاقات الدلالية لحالة تزامنية (إلا فى حدود أن تكون المعانى السابقة ما تزال ماثلة فى النظام، فينظر إليها فى هذه الحالة على أساس تزامنى، لا على أساس تاريخى).

هنا، وكما هو الشأن فى الحالات التي نظر فيها **سوسير**، تتبع الحقائق التاريخية نظاماً order يختلف عن النظام التزامنى، حيث تعتمد على عناصر فردية أكثر من اعتمادها على النظام system، الذى يستطيع وحده أن يعين تلك العناصر بوصفها عناصر لغوية. إن التاريخ، أو التطور التاريخى للعناصر المفردة، يدفع بصيغ يستخدمها النظام؛ وإن دراسة هذه الاستخدامات المنتظمة هى المهمة الأساسية. أما الشرح التاريخى أو السببى فليس هو الشيء المطلوب؛ لأنه يعتمد على عناصر لغة ما، وليس علي اللغة، كما أنه يعتمد عليها من حيث هى عناصر فحسب. والشرح فى علم اللغة عمل بنيوى؛ فالمرء يشرح الصيغ وقواعد النظم عن طريق عرضه لنظام العلاقات الأساسى فى وضع تزامنى بعينه، تلك العلاقات التى تنشيء عناصر هذا النظام التزامنى وتحددها.

تحليل اللسان:

تشير النتيجتان الأساسيتان لطبيعة العلامة الاعتباطية كلتاهما، اللتان توصلنا إليهما حتى الآن، إلى حقيقة واحدة، يمكن أن تعد مركز نظرية اللغة عند **سوسير**، الا وهى أن اللغة صيغة وليست مادة. فاللغة، أية لغة، هى نظام من القيم التي تتبادل العلاقات فيما بينها؛ وإن تحليل اللغة هو الكشف عن نظام القيم التى تشكل وضع اللغة. وفي الجانب المواجه لعناصر الأحداث الشفاهية، الصوتية والدلالية المحض، أو للكلام، يظهر اللسان

بوصفه نظاما من التقابلات والاختلافات؛ ومهمة المحلل هى استكشاف هذه الاختلافات الوظيفية.

إن المشكلة الأساسية، كما تتراءى من متابعتنا لإلحاح **سوسير** عليها، هى مشكلة؛ المماثلة اللغوية. ذلك بأن علم اللغة ليس فيه شيء مفترض أو مسلم به؛ فليست هناك عناصر ثابتة مكتفية بذاتها، يكون البدء بها. ولكى نماثل بين حالتين للعنصر اللغوى نفسه ينبغى لنا أن نشيد كينونة شكلية وتعالقية عن طريق التمييز بين الاختلافات غير الوظيفية (التى هى لذلك – عند **سوسير** – غير لغوية) والاختلافات الوظيفية. فإذا نحن ماثلنا بين العلاقات والتعارضات التى تحدد الدوال من جهة، والمدلولات من جهة أخرى، نكون قد وصلنا إلى أشياء يمكن لنا أن نسميها الكينونات الإيجابية الثابتة، أو العلامات اللغوية، وإن كان ينبغى لنا أن نتذكر أنها كينونات تخرج من شبكة الاختلافات التى تشكل النظام اللغوى فى مرحلة بعينها وتعتمد عليها.

ولكننا فى حديثنا حتى الآن عن العلامات أو العناصر اللغوية، قد يبدو الأمر كما لو كنا نتكلم عن الألفاظ لا غير، وكأن اللغة لا تشتمل على أكثر من المفردات، التى تنتظم وفقا للتعارضات الصوتية (الفونولوجية) والدلالية. وبطبيعة الحال تشتمل اللغة كذلك على كثير من العلاقات ومن علامات الاختلاف النحوية، ولكننا نجد **سوسير** فى فقرة جديرة بأن تقتبس كاملة يصر علي أن ليس هناك خلاف جوهرى بين العنصر اللغوى والحقيقة النحوية؛ وأن الطبيعة العامة فيهما هى نتيجة لحقيقة أن العلامات تمثل أشياء متمايزة كل التمايز، وأن ما يشكل العلامة اللغوية (كائنا ما كان نوعها) ليس سوى وجوه الاختلاف بين العلامات.

> **«ومن نتائج هذا المبدأ التى تبدو – فى التحليل الأخير – أقرب إلى التناقض، النتيجة التى تقول إن ما يشار إليه بصفة عامة على أنه (حقيقة نحوية) يلائم تعريفنا للعنصر اللغوى». وهذا ما يعبر عنه دائمًا تعارض الألفاظ. ومن ثم ففى حالة التعارض فى اللغة الألمانية بين Nacht «ليلة» و**

Nächte «ليال»، يكون الاختلاف هو ما يحمل المعني النحوى.

إن كلاً من اللفظين الحاضرين فى الحقيقة النحوية (المفرد بدون حركة الإمالة وبدون حرف الـ e، فى مواجهة الجمع الذى يظهر فيه الإمالة وحرف الـ e) هو ذاته نتيجة للتفاعل بين المتعارضات فى إطار النظام. وإذا أخذت لفظة Nacht او لفظة Nächte منفردة لم تكن شيئًا؛ ومن ثم يكمن كل شيء فى التعارض. وبعبارة أخرى يستطيع المرء أن يعبر عن العلاقة بين Nacht و Nächte فى صيغة جبرية مثل أ/ ب، حيث لا تكون أ أو ب مجرد لفظين بل يكون كل واحد منهما نتيجة لجملة من التعارضات. والنظام اللغوى هو ضرب من الجبر - إذا جاز التعبير - يشتمل على العبارات المركبة فحسب. وفى إطار التعارضات التى ينطوى عليها هذا النظام تكون مجموعة منها أدل من غيرها؛ ولكن «العنصر اللغوى» و «الواقعة النحوية» ليستا سوى اسمين مختلفين للدلالة على جوانب الظاهرة العامة نفسها؛ أى لعب التعارضات اللغوية. وهذا الذى نقوله صحيح إلى حد أننا قد نتناول مشكلة العناصر اللغوية عن طريق البدء بتناول الوقائع النحوية. فإذا نحن وقفنا أمام تعارض مثل التعارض بين Nacht و Nächte أمكننا أن نتساءل عن العناصر التى يشتمل عليها هذا التعارض؛ هل هى ماثلة فى هذين اللفظين فحسب، أو فى جملة الألفاظ المماثلة، أو فى الحرف a والحرف ä، أى فى كل صيغ المفرد وصيغ الجمع، وهكذا؟

ولم يكن العنصر اللغوى والواقعة النحوية ليكونا متماثلين إذا ما كانت العلامات اللغوية قائمة علي شيء خارج نطاق أشكال الاختلاف. ولكن لما كان النظام اللغوى هو ما هو، فإن المرء من حيثما بدأ لن يجد شيئًا بسيطا، بل سيجد دائمًا وفي كل مكان ذلك التوازن المركب نفسه بين الألفاظ التى يحدد بعضها بعضا أو يكيف بعضها بعضا على نحو متبادل. وبعبارة

أخرى أقول إن اللغة صيغة وليست مادة. وليس في وسع المرء أن يستغرق في أعماق هذه الحقيقة؛ لأن كل الأخطاء في مصطلحاتنا وكل أساليبنا الخاطئة في تعيين جوانب اللغة، إنما تنشأ عن تسليمنا اللاإرادى بأن الظواهر اللغوية يجب أن يكون لها كيان مادى. (الدروس ١٢١ - ٢٢، دروس ١٦٨ - ٦٩).

ولننظر على سبيل المثال فى كلمة took (أخذ) الإنجليزية؛ فما العلامة الدالة على الفعل الماضى هنا؟ من الواضح أنها ليست شيئًا متحققا فى الكلمة نفسها ولكنها عنصر تعالقى؛ فالتعارض بين take (يأخذ) و took (أخذ) يحمل وجه الاختلاف بين المضارع والماضى، كما أن التعارض بين foot (قدم) و feet (أقدام) يحمل وجه الاختلاف بينهما على مستوى العدد. ودون كلمة feet يمكن التسليم بأن كلمة foot لن تكون محددة، شأنها شأن كلمة sheep (قارن: «رأيت الغنم(*) فى الحقل»)، وهكذا تصور الوقائع النحوية الطبيعة التعالقية الصرف للعلامة، وتؤكد مفهوم سوسير الأساسى «للطبيعة المتماثلة بصفة جوهرية لكل الوقائع التزامنية» (الدروس ١٣٤، دروس ١٨٧).

من هنا فإن عالم اللغة يهتم فى دراسته للغة ما بالعلاقات؛ علاقات التماثل وعلاقات الاختلاف. ويذهب سوسير إلى أن المرء يستكشف عندئذ نمطين رئيسيين من العلاقة؛ فمن جهة هناك تلك العلاقات التى ناقشناها حتى الآن، أى علاقات التعارض التى تنتج ألفاظا تتمايز وتتبادل المكان (b بوصفها معارضة لـ p، و foot بوصفها معارضة لـ feet)؛ ومن جهة أخرى هناك العلاقات القائمة بين العناصر التى تترابط لكى تشكل سياقات. وفى السياق اللغوى لا تعتمد قيمة اللفظ على التعارض فحسب بينه وبين غيره من الألفاظ، التى ربما كانت قد تم اختيارها بدلا منه، بل تعتمد كذلك على علاقاته مع

(*) حيث يحتمل أن تكون كلمة sheep (الغنم) إشارة إلى الخروف أو الكبش أو النعجة. (المترجم).

الألفاظ التى سبقته في السياق والألفاظ التى جاءت تالية له. والنوع الأول من هذه العلاقات، التي يسميها **سوسير** العلاقات الترابطية، هو ما يسمى الآن بصفة عامة العلاقات الاستبدالية paradigmatic. أما النوع الثانى من هذه العلاقات فيسمى العلاقات السياقية syntagmatic. والعلاقات السياقية من شأنها أن تحدد الإمكانات النظمية، أى العلاقات بين العناصر، التى يمكن أن تنتظم فى سياق. أما العلاقات الاستبدالية فتتمثل فى التعارضات القائمة بين العناصر التى يمكن أن يحل الواحد منها محل الآخر.

هذه العلاقات تتمثل فى مستويات مختلفة من التحليل اللغوى. ومن ثم فإن الصوتم (phoneme) /p/ فى اللغة الإنجليزية يتحدد عن طريق تعارضه مع الصوتمات الأخرى التى يمكن أن تحل محله فى سياقات مثل / et - (قارن بـ bet و let و met و net و set) وعن طريق علاقاته التأليفية مع صوتمات أخرى على السواء (فهو قد يسبق أى حرف لين أو يأتى تاليا له، كما أنه عند وروده فى مقطع يكون الحرفان الصامتان /l/ و /r/ هما الساكنان الوحيدان اللذان يمكن أن يأتيا تاليين له، ويكون الحرف الصامت /s/ هو الحرف الوحيد الذى يمكن أن يسبقه).

ونحن نجد كذلك على المستوى الصرفى أو مستوى بنية الكلمة علاقات سياقية وتبادلية على السواء. فالاسم يحدد جزئيا عن طريق التأليفات التى يمكن أن يدخل فيها، مضافا إليه السوابق prefixes واللواحق suffixes. ومن ثم فإننا نجد هذه الكلمات: **friendless** و **friendly** و **friendliness** و **unfriendly** و **befriend** و **unbefriended** و**friendship** و **unfriendliness**، ولكننا لا نجد **disfriend** أو **friender** أو **friendation** أو **subfriend** أو **overfriend** أو **defriendize**. وتمثل الإمكانات التأليفية العلاقات السياقية؛ أما العلاقات التبادلية فتتمثل فى التعارض بين صوتم بعينه والصوتمات التى يمكن أن تحل محله في محيط بعينه. ومن ثم يكون التعارض التبادلى بين **ly** - و **less** - و - **ship** من حيث إنها جميعا قابلة لأن تأتى بعد كلمة friend، كما أن استبدال واحدة

obeikandi.com

منها بأخرى يحدث تغيرا فى المعنى. وبالمثل تدخل كلمة **Friend** فى علاقات تبادلية مع كلمات **lecture** و**member** و**dictator** و**partner** و**professor** وهكذا، من حيث إن هذه الكلمات جميعا تتعارض الواحدة منها مع الأخرى فى محيط اللاحقة ship-.

فإذا نحن انتقلنا إلى مستوى تركيب الجملة بالمعنى الصحيح، كان فى وسعنا أن نستمر فى تحديد هذه الأنماط نفسها من العلاقة. فالعلاقات السياقية التى تحدد عنصرا تكوينيا مثل: **أدخل الرعب فى قلب** he frightend، تسمح لهذا العنصر الاتتلوه إلا أنماط بعينها من العناصر التكوينية، مثل: **جورج**، أو **الرجل الواقف فى الزاوية**، أو واحد وثلاثين من الفئران الحقلية، إلخ، ولكنها لا تسمح بعناصر مثل: **الحجر**، أو **الإخلاص**، أو **لون الأرجوان** أو **فى**، إلخ. ومعرفتنا بالعلاقات السياقية هى التى تمكننا من أن نحدد للعنصر التكوينى **أدخل الرعب فى قلب** مجموعة من المفردات الاستبدالية التى يمكن أن تأتى تالية له. وهذه المفردات تقف الواحدة منها موقف التعارض التبادلى من غيرها من المفردات؛ واختيار مفردة منها هو إنتاج للمعنى عن طريق استبعاد المفردات الأخرى.

ويذهب **سوسير** إلى أن النظام اللغوى فى جملته يمكن إيجازه وشرحه فى إطار نظرية العلاقات السياقية والتبادلية، وأن كل الوقائع التزامنية بهذا المعنى تتماثل تماثلا جوهريا. وربما كان هذا هو أوضح تأكيد لما يمكن أن يسمى النظرة البنيوية إلى اللغة. ولا يعنى هذا فى بساطة أن اللغة نظام من العناصر التى تحدد تحديدا كاملا عن طريق علاقاتها الواحد منها مع غيره من العناصر فى إطار النظام، وإن كان الأمر كذلك، بل يعنى أن النظام اللغوى يشتمل على مستويات مختلفة من البنية؛ وأن المرء فى وسعه أن يحدد فى كل مستوى العناصر التى يتعارض بعضها مع بعضها، والتى تنتظم مع العناصر الأخرى لتشكيل صيغ من مستوى أعلى؛ وتظل مبادئ البنية فى كل مستوى هى المبادئ نفسها بصفة أساسية.

وفى وسعنا أن نلخص هذه النظرة ونصورها بقولنا إنه لما كانت اللغة صيغة وليست مادة، فإن عناصرها لا تنطوى إلا على خصائص تتسم بالتعارض وتتعلق بالتأليف؛ وإن

المرء ليحدد فى كل مستوى من مستويات البنية وحدات لغة ما أو عناصرها عن طريق قدرتها على تمييز وحدات المستوى الواقع فوقها مباشرة. إننا نحدد السمات الصوتية (الفونولوجية) الفارقة بوصفها السمات التعالقية التى تميز الصوتمات، فالحرف /b/ بالنسبة إلى الحرف /p/، والحرف /d/ بالنسبة إلى الحرف /t/، هما كما يكون الصائت (المجهور) بالنسبة إلى الصامت. ومن ثم فإن الصائت فى مقابل الصامت يعد سمة فارقة دنيا. وهذه الصوتمات فى دورها قابلة للتحديد، لأن التعارضات بينها لها القدرة على تمييز المورفيمات؛ فنحن نعرف أن الحرف /b/ والحرف /p/ لابد أن يكونا عنصرين لغويين لأنهما يتعارضان لكى يميزا بين كلمة **bet** وكلمة **pet**. وينبغى لنا أن نعد كلمة **bet** وكلمة **pet** وحدتين صرفيتين؛ لأن التعارض بينهما هو ما يميز - على سبيل المثال - بين **betting** (المراهنة) و **petting** (التدليل)، أو بين **bets** (الرهانات) و **pets** (صنوف الحيوان المدللة). وأخيرا فإن هذه المفردات، التى يمكن لنا أن نسميها - فى بساطة - كلمات، إنما تحددها حقيقة أنها تؤدى أدوارا فى وحدات من مستوى أعلى فى العبارات والجمل.

ونحن إذ نؤكد بهذا الاعتماد المتبادل بين مختلف المستويات اللغوية، إنما نوضح مرة أخرى كيف أن علم اللغة لا يعرف شيئا يسلم به سلفا. وليس هذا فحسب؛ فنحن نذهب إلى أن المرء لا يستطيع ابتداء أن يحدد العناصر أو الوحدات الخاصة بمستوى ما ثم يستنبط الطريقة التى تنتظم بها لتشكيل وحدات المستوى التالى؛ وذلك لأن العناصر التى يحاول المرء أن يبدأ بها إنما تحددها العلاقات السياقية والعلاقات التبادلية على السواء. والطريقة الوحيدة التى نستطيع بها أن نحدد السابقة re بوصفها عنصرا صرفيا فى اللغة الإنجليزية هى أن نسأل لا عما إذا كانت تتعارض مع عناصر أخرى، ولكن عما إذا كانت تدخل - عندما تنتظم مع عناصر أخرى لتشكل وحدة من مستوى أعلى - فى تعارضات تميز هذا المستوى الأعلى من التأليف وتحدده. ونحن نعرف أن السابقة -re تتعارض من الناحية التبادلية مع السوابق **-un** و **-out** و **-over**؛ لأن **redo** تتعارض مع

undo، و outdo، و overdo كما أننا نعرف أن do عنصر مورفيمي منفصل؛ لأن redo تتعارض مع rebuild و reuse و reconnect. لنقل إنها ليست سوى تعارضات بين الكلمات التي تعيننا على تحديد مكونات الألفاظ في المستوى الأدنى، أي المورفيمات. ولابد لنا أن نستنبط في الوقت نفسه العلاقات السياقية والعلاقات التبادلية. وهذا المبدأ البنيوي الأساسي، الذي يقرر أن العناصر تتحدد عن طريق تعارضاتها مع العناصر الأخرى وعن طريق قابليتها للانتظام لكي تشكل عناصر مستوى أعلى – هذا المبدأ يعمل في كل مستويات اللغة.

اللغة بوصفها حقيقة اجتماعية:

في شرحي لهذه الجوانب التقنية في نظرية **سوسير** في اللغة لم أؤكد على نحو كاف مبدأ عول عليه **سوسير** كثيرا، ألا وهو أننا عندما نحلل لغة ما إنما نحلل حقائق اجتماعية؛ تتناول الاستخدام الاجتماعي لعناصر مادية. وكما قلت من قبل، يمكن للغة ما أن تتحقق في عناصر اجتماعية متنوعة، دون أن يصيبها تغيير فيما يتعلق بطبيعتها الأساسية بوصفها نظاما من العلاقات. والمهم، بل كل ما له صلة بالموضوع، هو وجوه الاختلاف والعلاقات التي منحها المجتمع المعني. والسؤال الذي يطرحه المحلل دائما يتعلق بوجوه الاختلاف التي يجد فيها جمهور المتكلمين المعني. وربما كان من الصعب في الغالب أن يعزو المرء صيغة محددة إلى تلك الأشياء التي تؤدي وظيفتها بوصفها علامات؛ ولكن إذا كان اختلاف ما يحمل المعنى لدى أعضاء ثقافة ما، كان معنى هذا عندئذ أن هناك علامة – مهما تكن مجردة – ينبغي تحليلها. وهكذا تختلف جملة **جون يحب ماري** في اللغة الإنجليزية من حيث المعنى عن جملة **ماري تحب جون**؛ ولهذا يشكل نظام الكلمات علامة، أي واقعة اجتماعية، في حين أن بعض الاختلافات المادية الملموسة في الطريقة التي ينطق بها متكلمان جملة **جون يحب ماري** قد لا تحمل أي معنى، وتكون – من ثم – وقائع مادية صرفا، وليست وقائع اجتماعية.

فى وسعنا – إذن – أن نرى أن علم اللغة لا يدرس مجموعات ضخمة من السياقات الصوتية، بل يدرس نظاما من الأعراف الاجتماعية. وإن المرء ليحاول أن يحدد عناصر التأليف وقواعده التى تشكل ذلك النظام، والتى تجعل الاتصال اللغوى بين أفراد المجتمع ممكنا. ومن فضائل نظرية سوسير فى اللغة أنها وضعت الأعراف والوقائع الاجتماعية فى قلب البحث اللغوى عن طريق تأكيدها لمشكلة العلامة. فما علامات هذا النظام اللغوى؟ وعلى أى شىء تعتمد ما هيتها بوصفها علامات؟ وإذ طرح سوسير هذه الأسئلة البسيطة، وبين أن ليس هناك شىء يمكن التسليم به على أنه عنصر لغوى، راح يؤكد على الدوام أهمية تبنى المنظور المنهجى الصحيح والنظر إلى اللغة بوصفها نظاما من القيم التى أقرها المجتمع، لا بوصفها مجموعة من العناصر المحددة ماديا. ولكى ينهى المرء هذه المناقشة يمكنه أن يقتبس فقرتين كتبهما فى الواقع سوسير:

> **لنقل إن القانون الأساسى للغة هو أنه لا يمكن لشىء قط أن يستقر فى اللفظة المفردة. وهذا هو النتيجة المباشرة لحقيقة أن العلامات اللغوية لا ترتبط بالأشياء التى تدل عليها، وأن الحرف a لذلك لا يستطيع أن يدل على أى شىء دون معاونة من الحرف b، والعكس صحيح؛ أو لنقل بعبارة أخرى إن كلا من الحرفين لا تكون له قيمة إلا على أساس وجوه الاختلاف بينه وبين الحرف الآخر، أو أن أيا منهما لا تكون له قيمة فى أى مكون من مكوناته إلا خلال هذه الشبكة نفسها من وجوه الاختلاف السلبية على الدوام.**
>
> **ولما كانت اللغة لا تشتمل على مقوم مادى، بل يقتصر الأمر فيها على الحركة المفردة أو المركبة للقوى العضوية والنفسية والعقلية لدى الإنسان؛ ولما كان جهاز مصطلحاتنا فى جملته، وكانت كل الطرق التى نتحدث بها عنه، قد شكلتها دعوانا اللا إرادية بأن هناك مقوما ماديا فى اللغة، بغض النظر عن كل وجوه التفرقة التى نصل إليها، فإن المرء لا يسعه أن يتحاشى**

- قبل أى شىء آخر - إدراك أن المهمة البالغة الجوهرية للنظرية اللغوية ستكون تحرير الوضع الخاص بما نقوم به من تفرقات أساسية. وليس فى وسعى أن أمنح أى شخص الحق فى إقامة نظرية فى الوقت الذى يتحاشى فيه مهمة التعريف، وإن بدا هذا الإجراء المريح قاصرا عن الوفاء بحاجة طلاب اللغة(١).

إن ما فى نظرية سوسير من قوى موجِّهة يتمثل فى تشجيع حالة الاستياء وتنشيط التفكير فى الأمور الجوهرية، وفى تأكيد الطبيعة التعالقية للظواهر اللغوية. وفى وسعنا الآن أن ننظر فى الدلالة الأوسع لعمله؛ فى علاقة هذا العمل بالتفكير السابق والتفكير اللاحق فى اللغة، وبالعمل فى المجالات المعرفية الأخرى.

(1) "Notes inédites de F. de Saussure", Cahiers Ferdinand de Saussure 12 (1954), 63 and 55 - 56.

obeikandl.com